

عزیز السید جاسم

الإغتراب
في حياة وشعر
الشرف الرضي

دار الأنجلو

مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



الاختِراب
فِي حَيَاةٍ وَسُّعْرٍ
الشَّرَفِيُّ الضِّيُّ

عزیز السید جاسم

الإغتراب
في حياة وشعر
الشرف الضوي

دار الأنطلس

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

دار الأندلس - بيروت، لبنان

هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ - ١١ - تلکس ٢٣٦٨٣

*«لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحدٌ إلى أحدٍ يسأل شيئاً».

(حديث نبوي)

*«يا دنيا إليك عني، غرّي غيري. إليّ تعرّضت أم إليّ تشوّفت؟ .. هيهات .. قد بايتك ثلاثاً .. لا رجعة لي إليك .. فعمرك قصير .. وخطرك حقير .. وخطبك يسير .. آه من قلة الزاد، وطول الطريق، ووحشة السفر!!».

(علي بن أبي طالب)

*«فما لي طول الدهر أمشي كأنني لفضلي في هذا الزمان غريب».

(الشريف الرضي)

(المدخل)

الشعر والإغتراب

إن فهم ثنائية الإغتراب في شعر الشريف الرضي يرتبط - بالضرورة - بالتشخيص القرآني للشعر والشعراء، والذي كان في جوهره حسماً إسلامياً واضحاً لحقيقة الشعر بوجه الجاهلية والوثنيات الشائعة منذ عصور ما قبل الإسلام.

وقد كانت الإتجاهات الجاهلية ثقيلة الوطأة في التصدي للدعوة المحمدية العظيمة، وكان في مقدّمة الإفتراءات الجاهلية إنكار النبوة والرسالة المحمدية، والإدعاء أن الآي الكريم شعرٌ أو نوعٌ من الشعر، وأن النبيّ الكريم شاعر.

وحيث أن المحيط العربي كان محيط شعر وشعراء فإن مجرد القول بشاعرية النبي العظيم كان يعني تخفيض قداسة الرسالة إلى مستوى الشعر الذائع في المحيط العربي، ولذلك كان ردُّ القرآن الكريم حازماً وصارماً:

﴿وما علّمناه الشعر، وما ينبغي له، إن هو إلاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبين﴾^(١).

و ﴿أم يقولون شاعرٌ ترتبُصُّ به ريبُ المنون﴾^(٢).

و ﴿وما هو بقولٍ شاعرٍ، قليلاً ما تُؤْمِنون﴾^(٣).

وفي سورة «الشعراء» عرض القرآن الكريم فهماً صائباً، عميقاً، شاملاً عن الشعراء، محدداً مكانة الشاعر في الهداية، أو في الغواية، وقيّمته في الحالين، ذاكراً ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون

وأَنهم يقولون ما لا يفعلون. إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعدما ظلموا ﴿٤﴾.

إن القرآن الكريم في دفاعه التام عن النبوة، والرسالة الإلهية، والتغيير الاجتماعي الشامل القائم على الإيمان الإلهي والعدل، قدّم إدانة واضحة للشعراء الغواة، والمتقلبين، والمدّاحين، والمتكسبين، والثرثارين، والذين يقولون ما لا يفعلون، مُنبهاً صورة الشاعر الجاهلي، القبلي، المتأله، المغرور، وداعياً إلى تبني الصورة الحقيقية للشاعر، والتي استثنأها بقوله ﴿... إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعدما ظلموا...﴾ (٥).

من هذا المنطلق القرآني تأكّدت الفكرة الجوهرية التي تنصُّ على علاقة الشعر بالإيمان، والتي يمكن إدراك مدى صدق الشاعر، وجدّيته، أو حقيقته بتعبير أدق.

وفي واقع الأمر أن العودة إلى المنطلق القرآني ضرورية تماماً، وخاصة بالنسبة إلى شاعر هو الشريف الرضي، المسلم أولاً، ومن سلالة النبي الكريم ثانياً إضافة إلى ذلك، أن المنطلق القرآني يقدّم تصوّراً شاملاً عن اغتراب الشاعر ومعاناته العجيبة، التي لا حل لها إلا في الإيمان، والإلتزام، والنظر بعين الحق.

فحيث يرتبط الشاعر بأسباب الحياة والمعيشة والعلاقات الاجتماعية، وهي أسباب مادية فإنه، شأن أي إنسان آخر، يخضع لقوانين الحياة، ومتطلبات العيش، والضرورات الاجتماعية، وحيث ينتمي الشاعر إلى الشعر فإنه يُخلّق في فضاءات الأخيلة والرؤى بعيداً عن القوانين والعلل المادية للحياة.

وما من ضرورة، في أن يؤدي ذلك التناقض بين أسباب الحياة ودواعي

الشعر وسياحاته إلى الإزدواجية، ما دام الشاعر متمسكاً بيقينه الفكري،
وهده الروحى، إلا أن من المؤكد أن اغتراب الشاعر هو حقيقة كل شاعر
بالنهاية.

إن مسار القدمين شيء، وهوى رأس الشاعر شيء آخر.

فهوى رأس الشاعر هو الذي يستصفي واقع الحياة على النحو الذي
يتخيلُه. فهو يعيد رسم العالم بصورة شفافة، متنبئاً بالمستقبل، أو حالماً
بالجديد، وذلك - بالتحديد - هو ميدان تعريفه، ولقبه، وشهرته.

إثر ذلك، يبدو من الصعب رد الشاعر إلى الواقع المادي، بكل
متشابكاته الأرضية التي لا تفسح المجال أمام الأخيلة والأحلام، إلا من
خلال برزخ واحد، هو برزخ «القضية» التي يؤمن بها إن كان مؤمناً.

وفى عدا القضية التي ينتسب إليها الشاعر، ويؤمن بها، فإن هواه هو
الذي يقوده في عشرات الطرق، وشيطان شعره أقوى من عقله.

وقد انتبه أفلاطون إلى قداسة الشعر لدى الشاعر الحقيقي، فالشاعر
كائن مقدس، مثير للإعجاب، يخلب الأبواب، إلا أنه لا مكان له في
جمهورية أفلاطون، ولا بد من إرساله إلى دولة أخرى مكرماً، معزراً.

ويذكر أفلاطون ذلك قائلاً في المحاورات: «... الأمر الذي تختصُّ به
دولتنا أن الاسكافي فيها إسكافي وليس ملاحاً وإسكافياً في الوقت نفسه،
والفلاح فلاح وليس قاضياً وفلاحاً في الوقت نفسه، ورجل الحرب رجل
حرب، وليس تاجراً ورجل حرب في الوقت نفسه. وذلك هو شأن الجميع.

قال: هذا صحيح!

يبدو إذن أنه إذا مثل في دولتنا رجل بارع في اتخاذ جميع القوالب،
وتقليد جميع المظاهر ليجتج قصائده وينشدها للجمهور، فلنا أن نثني عليه كما

نفعل مع كائن مقدّس، مشير للإعجاب، يخلب الألباب، ولكننا نقول له: ليس في دولتنا من يشبهه، ولا يمكن أن يكون فيها. ثم نرسله إلى دولة أخرى، بعد أن نثر العطور على رأسه ونضفر له الأكاليل...» (٦)

لكن أفلاطون وهو يقصي الشاعر عن جمهوريته، يبعد في الوقت ذاته أنصاره، فالشعراء في حالات الوجد الشعري والإنخفاف، هم أقرب الناس إلى عالم المثل، وإلى المثالية الأفلاطونية. إلا أن خشيته من الشعراء ليست فلسفية بالدرجة الأولى، بل هي خشية تتصل بتنظيم المدينة الأفلاطونية، التي تحتاج إلى تلاحم العقول المفكرة مع الأيدي العاملة والمحاربة.

ورغم أن الشاعر يغتني من الحياة، وتعمق تجربته في الصراع السياسي والاجتماعي والحياتي بعامه، إلا أن عالمه ليس العالم المادي للناس الآخرين، عندما يستولي عليه الشعر. بعبارة ثانية إن عالم الرؤى، والأخيلة، والأحلام، والتأملات، هو غير العالم الواقعي المعاش.

وفي العلاقة بين العالمين: المادي والرؤوي، يبدأ اغتراب الشاعر الذي لا يستطيع الشاعر -ذاته- التحكّم بحدوده، مهما نضجت تجربته الشعرية، ومهما امتدّت به خبرة الزمن. لأن أخيلة الشاعر الفتية، والمتجدّدة لا تعترف بالزمن. وبطبيعة الحال إن الإغتراب الشعري والحياتي للشاعر يعود إلى عوامل ذاتية وموضوعية، وعوامل روحية ومادية متداخلة، كما أن قهر الإغتراب، كإمكانية، يرتبط -أيضاً- بسلسلة من العوامل الذاتية والاجتماعية والإقتصادية والثقافية.

ويمكن إجمال عوامل الإغتراب في عاملين متميزين:

الأول: الإغتراب الناجم عن طبيعة الشعر، لأن كل شعر هو تدفقات صورية، لا محدودة، وتحليقات شعورية ولا شعورية تأتي في لحظة غياب الشاعر عن واقعه الحسي.

فكل شعر- إذن- نوع من (العلو) المعترب في وقت الخلق الشعري .

أما العامل الثاني فهو يوحد جميع الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامّة المؤدية إلى الغربة والمعاناة الدائمة، وبلا شك، إن هذه الظروف والأسباب تلعب دوراً كبيراً في تغذية مضامين الشعر، وتحديد اتجاه الشعر، أو تغييره وتتداخل العوامل تداخلاً معقداً، إلى الحد الذي تصبح فيه عملية فرز الأسباب الرئيسية عن الثانوية في تحديد نوع المؤثرات (المغربّة) من أشقّ العمليات التحليلية . لأن نفس الشاعر المرهفة، والشديدة الحساسية، تكبر فيها الإنفعالات أو تصغر، خارج إمكانات القياس الاعتيادية . فأستجابات الشاعر، وردود فعله، ليست بالأمر الذي يسهل تعيين حدوده .

لذلك يمكن القول إن ثمة عوامل صغيرة جداً، أو غير معروفة، أو لا شعورية (غير معروفة حتى من قبل الشاعر نفسه) قد تكون محرّضاً فعّالاً في تقرير اختيارات الشاعر، وانتهاجاته السريعة أو طويلة الأمد .

ومن الثابت أن الأسباب اللاشعورية تسهم إسهاماً كبيراً في تكوين جانب كبير من جوانب العالم الشعري، سواء أكان ذلك في المضمون أو في الشكل .

ومع أن (الشعر) يأتي من (الشعور)، إلا أن (اللاشعور) يتعهد بصياغة أهم ما في الشعر، إذا ما فهمنا الشعر بمعناه الحقيقي كشعر!

والشاعر الرضي انمّودج الشاعر المبدع الذي سقى زرعه بالإغتراب العميق، وبعيد الغور، والمتجذّر في النفس، وفي الزمان، وفي المكان، وتبرز الغربة في شعره عبر مئات الصور الشعرية الحزينة، والراثية، والبكاثية، مثلما هي بارزة في حياته التي تقسّمتها التعاسات .

ويعتبر منطلق الإغتراب، وأساسه العميق في نفسية وحياة وشعر السيد

الرضي ثنائي المجد والفجيرة، الذي اكتسب بعده التاريخي في قطاع طويل من المسلمين، هو قطاع الطالبين، والذي أصبح بامتداده عبر الحقب الزمنية ذاتها إيديولوجية، واجتماعية راسخة.

ويقوم الثنائي المذكور على حقيقتين تنطويان على مفارقة مأساوية: الحقيقة الأولى مجد الشريف الرضي، واسرته الذي ينطلق في الحسب والنسب من الإمام علي بن أبي طالب وأهل بيت النبي.

أما الحقيقة الثانية فهي مقاتل الطالبين، والفجيرة الحسينية الكبرى.

وتكمن المفارقة الدامية في أن النسب المجيد، بدلاً من أن يقود إلى احتياز مكانة الحق والقيادة وتصريف أمور الناس من قبل سلالة أهل بيت النبي، فإنه قادم إلى حتوفهم، وإلى مواضع الإضطهاد العاتي.

وشعر الشريف الرضي مليء بافتخار الحسب والنسب، فالنبي جدّه، والإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والده.

فمن قوله يفتخر ويذمّ الزمان في قصيدة مطلعها:

أتذكراني طلب الطوائل	أيقظتني غير غافل
قوما فقد مللت من إقامتي	والبيد أولي بي من المعائل
إن أمير المؤمنين والدي	حز الرقاب بالقضاء الفاصل
وجدي النبي في آبائه	علا ذرى العلياء والكواهل
فمن كأجدادي إذا نسبتني	أم من كأحيائي أو قبائلي
من هاشم أكرم من حجّ ومن	جلل بيت الله بالوصائل
قوم لا يديهم على كل يد	فضل سجال من ردئ ونائل
فوارس الغارات لا يُطربهم	إلا نوازي نغم الصواهل
أرى ملوكاً كالبهام غفلة	في مثل طيش النعم الجوافل ^(٧)

وقال وهو يفتخر بأبائه عموماً:

لنا الدولة الغراء ما زال عندها
بعيدة صوت في العلى غير رافع
ونحن أعز الناس شرقاً ومغرباً
وكلُّ محيياً بالسلام معظم
وأبيض بسام كأن جبينه
حبيُّ فإن سيم الهوان رأيتَه
بنا الجهات المستنيرات في العلى
ومن قبل ما أبلى بيدٍ وغيرها
ورثنا رسول الله علويَّ مجده
وعند رجالٍ أن جُلُّ ترائه
يريدون أن نلقي إليهم أكفنا
فله ما أفسى ضائر قومنا
من الجور وواقٍ أو من الظلم منصفُ
بها صوته المظلوم والمتحيِّفُ
وأكرمُ أبصارٍ على الأرضِ تطرفُ
كثير إليه الناظرُ المشوِّفُ
سنا قمرٍ أو بارقٍ متكشفُ
يشدُّ ولا ماضي الغرارين مرهفُ
إذا التثم الأقوامُ زلاً وأغدفوا
ولا موقفٌ إلا له فيه موقفُ
ومعظم ما ضمَّ الصفا والمعرفُ
قضيْبٌ محلىٌ أو رداءٌ مُفوفُ
ومن دمنا أيديهم الدهر تنطفُ
لقد جاوزوا حدَّ الحقوق وأسرفوا^(٨)

ورغم أن القصيدة تصل إلى هدفٍ محدّد يتعلّق بوالده السيد (أبي أحمد الموسوي)، إلا أن الإبتداء الفخاري بالحسب والنسب واللقب وبالتاج النبوي الأكبر، سرعان ما يتدرّج إلى لازمته الضرورية التي لا مناص منها، وهي التفجّع، ومرارة التأسي.

ومن الناحية التاريخية، إن الطعنة الغادرة التي أنهت حياة الدنيا لعلي ابن أبي طالب كانت قد وضعت أهل البيت في نقطة المفترق، في حين جاء استشهاد الحسين بن علي يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة إحدى وستين ذروة المأساة، التي تتردد صيحتها بين جنبات العالم الإسلامي بهدير لم يهدأ أبداً بل في ازدياد.

وإذا ما كان التفجّع لاستشهاد الحسين تظاهرة تاريخية كبرى يشترك

فيها ملايين المسلمين، ويشاركهم العزاء العديد من غير المسلمين، فكيف الحال والشريف الرضي من أحفاد الحسين، وهو: أبو الحسن، الشريف الأجل، الملقب بالرضي، ذو الحسين، محمد بن الحسين (أو محمد بن أبي أحمد) بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

لقد جاء اغتراب الشريف الرضي وغربته من الفجيرة الأليمة، والمأساة التي لا مثيل لها، من تلك البداية الجليلة، في يوم عاشوراء، حينما استشهد الحسين، ومعه الكوكبة الطاهرة من شهداء أهل البيت: العباس، وجعفر، وعثمان، ومحمد، وأبو بكر (أولاد علي بن أبي طالب)، وعلي، وعبد الله (ولدا الحسين)، وأبو بكر، وعبد الله، والقاسم (أولاد الحسن)، وعون الأكبر ومحمد (ولدا عبد الله بن جعفر)، وجعفر وعبد الرحمن، وعبد الله، ومسلم (أولاد عقيل بن أبي طالب)، وعبد الله بن مسلم بن عقيل، ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل.

لقد جرى قتل أهل بيت الرسول بأيدي أناس كانوا يدعون الإسلام، وهذا ما أعطى للمأساة بعداً فجائعاً لم يتكرر في التاريخ.

فلم يرو أحدٌ في جميع مراحل التاريخ أن بشراً يقتلون أهل بيت نبيهم، وبأسم خلافة الدين (!) إلا في مناسبة واحدة هي ملحمة عاشوراء.

كان النبي يقول: «استوصوا بأهل بيتي خيراً، فإنني أخاصمكم عنهم غداً، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار»^(٩).

وكان يقول: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله: فيه الهدى والنور. فخذوا بكتاب الله، وأستمسكوا به. ثم أهل بيتي... أذكركم الله

في أهل بيتي .. أذكركم الله في أهل بيتي .. أذكركم في أهل بيتي» (١٠) .

وكانت أحداث عاشوراء أكبر من خيانة (نبي)، لأنها كانت محاولة لإحياء دُرِّيَّة النبي، لكن الله أحبط مساعي الظالمين، فجعل البلاء الذي مر به أهل البيت قوة للدين، ونصرة لأفكار الشهداء الخالدين، وإنما البلاء على قدر صدق الصادقين. وفي حديث نبوي: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأُمثَل فالأُمثَل، يبتلي المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلماً أشدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» (١١)(*) .

ومثلها توارثت سلالة الحسين العلم والمناقب الشريفة، فإنها توارثت الشعور المتجدد بقوة النكبة، فأفرد الشريف الرضي غرراً من القصائد في رثاء أبي عبد الله الحسين بن علي، ومنها رثائية عاشوراء سنة ٣٨٧:

راحلُ أنتَ والليالي تزولُ	ومضِرُّ بك البقاء الطويلُ
لا شجاعُ يبقى فيعتنق البيـ	ض ولا أملُ ولا مأمولُ
غاية الناس في الزمان فناءً	وكذا غاية الغصون الذبولُ
إنما المرء للمنيَّة محبو	ء وللطعن تستجمُّ الخيولُ
من مقيـلٍ بين الضلوع إلى طو	ل عناءٍ وفي التراب مقيـلُ
فهو كالغيم أُلْفته جنوبُ	يوم دجنٍ ومزقته قَبولُ
عادة للزمان في كلِّ يومٍ	يتنأى حلُّ وتبكي طولُ
فالليالي عونٌ عليك مع البيـ	ن كما ساعد الذوابل طولُ
ربِّنا وافق الفتى من زمانٍ	فرحٍ غيره به متبولُ
هي دنيا إن واصلتَ ذا جَفَتْ هـ	ذا ملالاً كأنها عُطبولُ (١٢)
كلُّ باكٍ يبكي عليه وإن طا	ل بقاءً والثاكلُ المشكولُ
والأمانِيُّ حسرةٌ وعناءُ	للذي ظنَّ أنها تعليلُ

ما يبالي الحمام أين ترقى
 أي يوم أدمى المدامع فيه
 يوم عاشوراء الذي لا أعان الـ
 يا ابن بنت الرسول ضيعت العهد
 ما أطاعوا النبي فيك وقد ما
 وأحالوا على المقادير في حر
 وأستقالوا من بعدما أجلبوا فيه
 إن أمر قنعت من دونه السيء
 يا حساماً فلت مضاربها
 يا جواداً أدمى الجواد من الطغ
 حجل الخيل من دماء الأعادي
 يوم طاحت أيدي السوابق في النقد
 أتراني أعير وجهي صوناً
 أتراني ألد ماءً ولماً
 قبلته الرماح وأنتضلت فيه
 والسبايا على النجائب تستا
 من قلوب يدمى بها ناظر الوج
 قد سلبن القناع عن كل وجه
 وتنقبن بالأنامل والدم
 وتشاكين والشكاة بكاء
 يا غريب الديار صبري غريب
 بي نزاع يطغى إليك وشوق
 ليت أني ضجيع قبرك أو أن
 لا أغب الطفوف في كل يوم

بعدما غالت ابن فاطم غول
 حادث رائع وخطب جليل
 صحب فيه ولا أجار القبيل
 مد رجال والحافظون قليل
 لت بأرماهم إليك الذحول^(١٣)
 بك لو أن عذرهم مقبول
 ها الآن أيها المستقيل
 ف لمن حازه لمرعى وبيل
 م وقد فله الحسام الصقيل
 بن وول ونحره مبلول
 يوم يبدو ظعن وتخفى حجول
 ع وفاض الوى وغاض الصهيل
 وعلى وجهه تجول الخيول
 يرو من مهجة الإمام الغليل
 ه المنايا وعانقته الفصول
 ق وقد نالت الجيوب الذبول
 د ومن أدمع مراها الهمول
 فيه للصون من قناع بديل
 ع على كل ذي نقاب دليل
 وتنادين والنداء عويل
 وقتيل الأعداء نومي ثقيل
 وغرام وزفرة وعويل
 ن ثراه بمدمعي مطلول
 من طراق الأنواء غيث هطول

مطرٌ ناعمٌ وريحٌ شمالٌ ونسيمٌ غضٌ وظلٌ ظليلٌ
يا بني أحمدٍ إلى كم سناني غائبٌ عن طعانه ممطولٌ
وجيادي مربوطةٌ والمطايا ومقامي يروع عنه الدخيلُ
كم إلى كم تعلقو الطغاة وكم يحُ كم في كلِّ فاضلٍ مفضولٌ^(١٤)

إن نداء الشريف الرضي الذي امتدَّ حرف النداء فيه (يا) مع المنادي (الغريب) إلى ما لا محطة له، ولا نهاية، عبر الزمن، هو الصوت الذي يسكن أعماقه الموحشة، ويركب لسانه الذي لا يكف عن اللهج والتحسس، فتظلُّ المناداة الصارخة: يا غريب الديار صبري عجيبٌ مدخلاً لتفسير إغتراب الشاعر وغربته التي تتجاوز في المعنى كل شقاء.

ذو التعاستين

ورث الشريف الرضي في روحه ودمه روح الفجيعة الحسينية، لكن الدهر لم يترفق به في حدود ذلك، بل أدخر له أمراً عظيماً وتعاستين بالغتين:

الأولى سجن أبيه الذي كان سنده الكبير والشخصية العظيمة التي حملت قبساً من نور أهل البيت وحكمتهم وعدالتهم.

لقد: «كان أبوه النقيب أبو أحمد، جليل القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بين بويه، ولقب بالطاهر ذي المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطاهر الأوحده، ووليَّ نقابة الطالبين خمس دفعات، كما وُلِّيَّ النظر في المظالم، وحجَّ بالناس مراراً. أميراً على الموسم»^(١٥). لقد كان الشريف الرضي في العاشرة من عمره، حينها سجنه عضد الدولة، ففقد بذلك وليَّ الأمر، والسند، والنصير، ولم يكن أبوه مجرد أب، بل كان يرى فيه تجسيداً لموضوع فخاره وافتخاره، وكان يعلق الآمال على أن يحتاز أبوه المكانة التي يستحقها، والتي لا تقل شأنًا

عن الخلافة. وقد كانت آمال الصبا كبيرة وملوّنة، حينما كان أبوه سيّداً مطاعاً، ومصلحاً كبيراً، وبسجنه تطايرت الآمال وخيّمَت ظلمة الأسي على روح الشريف الرضي.

لقد كان الإغتراب التاريخي الذي ورثه الشاعر يحثُّ على الثورة، وقبل أن يبلغ الشباب كان يحتاج إلى حماية ورعاية وجاهاً في أبيه، وفي لحظة واحدة وجد الشاعر نفسه أمام الحقيقة القاسية، سجن أبيه وعمه، وتهدّم بناء الحماية والعز في لحظة غريبة.

وفي ذلك يقول زكي مبارك: «وما ظنكم بطفل يتوقّد غيراً وحماسةً، ويقبل على الدرس إقبال الرجال، فيصل النهار بالليل في درس العلوم العقلية والنقلية، ويأوي إلى بيت عامر بالكرم والجود تعجُّ أرجاؤه بأصوات الخدم والحاشية، ويرى أباه في الصباح والمساء وهو عماد المكروبين، وغيث الملهوفين، ويرى أساتذته يبالغون في إكرامه لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله يمسي بعافية ثم يصبح فيرى ذاهل العقل أن أباه جُرّد من الحول والطول وألْقَى به في غياهب الاعتقال»^(١٦).

ويضيف: «إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعري في طفل غريب، لأنكم تعيشون في أزمان لا تعرف الشقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة وهو ابن عشر سنين، ولكن يسهل عليكم تخيل ذلك حين تتذكرون كيف كان حل الشريف الرضي حين نُقل أبوه منفياً إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسى ذلك الطفل فقيراً ذليلاً بعد الغنى والعزة، حتى صح لبعض أساتذته أن يهبه داراً يسكنها!

وما أظلم الأيام التي تُحوج طفلاً مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمتع وإباء. تصوروا حال الشريف وهو يجاور أستاذه فيقول: لم أقبل برّ أبي

فكيف أقبل برك؟! فيجيب الأستاذ وهو يتوسل إليه: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك، لأنني حفظتك كتاب الله تعالى فقبلها».

إن فترة سجن السيد أبي أحمد الموسوي في قلعة فارس امتدت من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٧٦ وانت التعاسة الأولى التي أججت كل ما هو كامن من شعور فجائعي، وتمردني في نفس الرضي، وأضيف إليها التعاسة الثانية وهي مصادرة أملاك والده وتعريض العائلة للعوز والحرمان.

ولعل إهداء الدار إليه من قبل أستاذه ابراهيم بن أحمد الطبري خير بلاغ عن الفاقة التي آل إليها الشريف الرضي، على ما عرف عليه الشاعر من إباء، وترفع، وكبرياء رافقته منذ الصغر، ولم تحنه على الكبر. وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: «أما ترفع الشريف وأنفته وارتفاعه فوق المطامح المادية فمشهور، وقد عرف عنه أنه لم يقبل هدية من أحد»^(١٧). ولم ينس الشريف الرضي استفزاز المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة لوالده حين القبض عليه، إذ قال له: «كم تدل علينا بالعظام النخرة» مستهيناً بذلك بالسلالة الطاهرة الشريفة، وأصلها الكريم. وقد كان لتلاهانة طعم خارق، لاذع، لم يتمكن الشاعر من نسيانه أبداً.

وتفعل المأساة فعلها الكبير في نفس الشاعر، وسنه فوق العاشر بقليل، فيذكر أباه في قصيدة يقول فيها:

نصافي المعالي والزمان معانداً	وننهض بالآمال والجد قاعداً
تمر بنا الأيام غير رواجع	كما صافحت مر السيول الجلامد
وتمكننا من ماها كل مزنة	وتمنعنا فضل السحاب المزود
وما مرضت لي في المطالب هممة	وأحدثه في كل يوم عوائد
عوائد هم لا يحين غبطة	بهن ولا تلقى هن الوسائد
ولله ليل يملأ القلب هولاً	وقد قلقت بالنائمين المراقداً ^(١٨)

وتعزّزَ فيما كل المصائب قادمٌ
ينال الفتى من دهره قدر نفسه
فدىّ لك يا مجد المعالي وبأسها
فما تركت منك الصوارم والقنا
عزلت ولكن ما عزلت عن الندى
بوجهك ماء العز في العزل ذائب
فأنت ترجي الملك وهو زواله
فلا يفرح الأعداء فالعزل
وما كنت إلّا السيف يمضي ذبابه
عليك ولا كل النوائب عائداً
وتأتي على قدر الرجال المكاييدُ
فعال جبان شجّعته الحقائقُ
ولا أخذت منك الحسان الخرائدُ
وجودك في جيد العلى لك شاهد
ووجه الذي ولى من الماء جامد
بغير جلاذٍ فيه وهو مجالدُ
معرضٌ إذا راح عنه صادراً جاء وارداً
ولا ينصر العلياء من لا يجالداً^(١٩)

ثم يحمل على المستفزّ الشاتم وزير عضد الدولة :

يدلّ بغير الله عضداً وناصرأً
تعيّر ربّ الخير بالي عظامه
ولكن رأى سبّ النبيّ غنيمَةً
ولو كان بين الفاطميين رفرفتُ
وناصرُك الرحمن والمجد عاضداً
ألا نزهتُ تلك العظام البوائدُ
وما حوله إلّا مريبٌ وجاحدُ
عليه العوالي والظبي والسواعدُ^(٢٠)

إن جرح الاهانة أثار فيه سخطاً على الدولة ووزيرها، ولذلك انطلق
التحدّي شعراً، و«عرّض بالخليفة العباسي، ولوّح له بعظمة الفاطميين في
مصر، وكان ذلك يومئذ من المحظورات»^(٢١).

وأضاف في قصيدته :

وما والد مثل ابن موسى لمولد
همي الحج واحتلّ المظالم رتبةً
فأقبل والدينا مشوقٌ وشايقُ
وساعده يوم استقلّ ركابه
قريب تجافاه الرجال الأبعادُ
على أن ريعان النقابة زائدُ
وأعرض والدينا طريدٌ وطاردُ
أخوه وقال البين نعم المساعدُ
عشيّة زالت بالفروع القواعدُ
هما صبرا والحق يركب رأسه

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يهأديه إلى المجد والدُّ
وتختلفُ الأموال في ثمراتها إذا أشرقت بالري والماء واحدُ

إن حب الشاعر لأبيه تجسيد مكثف لعدة أشكال ودرجات من الحب، فهو حب الابن للأب، وحب التلميذ للأستاذ، وحب المؤمن بزعامة الزعيم للزعيم، وحب الذات للأ نموذج الذي تسعى إلى أن تسير على هداه وتكون بصورته. ففي قرارة نفس الشريف الرضي ترعرع طموح مشروع في أن يكون زعيماً كأبيه.

فتفتق الحب عن أكثر من أربعين قصيدة مدح لأبيه.

ويشير زكي مبارك إلى أن أشعار الشريف الرضي في مدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف: «الطائفة الأولى في التوجع لأبيه وهو سجين، والطائفة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص وردّ أملاكه إليه، والطائفة الثالثة في تهنئته بالأعياد بعد أن لان الزمان. ولكل طائفة من هذه الأشعار خصائص: فالطائفة الأولى تصور الحزن والجزع والتفجع، والثانية يغلب عليها الابتسام ولكنها تفيض بالسّم الزعاف في الثورة على الناس، والثالثة تخلع على أبيه رداء الملوك. فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك» (٢٢).

إن حب الشريف الرضي لوالده كان انتماءً عظيماً للأب وللقضية وللنفس في آن واحد.

وحينما اطلق سراح والده (ومعه عمه)، وقدم من فارس إلى بغداد، فإن روح الشاعر كانت ترافق الوالد في عودته مرحلة مرحلة، ولكل مرحلة كان يُعدُّ لها شعراً وكلمات. وذلك يدلل على الغصص التي حبست في صدره، والتي أخذ يطلقها حيناً بعد حين، مع مسيرة عودة أبيه من المنفى والسجن.

فمثلاً هناك قصيدة وجهها إلى أبيه وأنفذها إليه قبل دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، «فهو كان يعرف معنى التحية، تحية الراجع إلى

وطنه وهو في الطريق، كما نرسل برقيات التحية في هذه الأيام ليفرح بها القادمون وهم على متون البواخر، وهذه القصيدة ليست من الطوال، ولكنها على قصرها تصور شوقه إلى أبيه وهو نبتٌ ضعيف، ويشير إلى ما صنعت به الأيام، فيقول في آخر القصيدة:

لَمَّا ذَكَرْتُكَ عَادَ قَلْبِي شَوْقُهُ	فَبَكِينٍ عَنْهُ مَدَامُعُ الْأَقْلَامِ
خَلَفْتَنِي زَرْعاً فَطُلْتُ وَإِنَّمَا	ذَاكَ الْغَرَارُ نَمَى إِلَى الصَّمْصَامِ
أَكَدْتُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنْ أَطْرَافِهَا	وَتَدَرَّعَتْ بِمَدَارِعِ الْإِظْلَامِ
وَعَهَّدْتَهَا خَضْرَاءَ كَيْفَ لَقِيْتَهَا	أَبْصُرْتُ فِيهَا مَسْرَحاً لِسَوَامِي
أَشْكُو وَأَكْتُمُ بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدٌ	فَأَعَاَفُ أَنْ أَشْكُو مِنَ الْإِعْدَامِ (٢٣)

وعندما وصل أبوه، ذلك الأمير الحقيقي، والذي شمخت صورته في حلم الرضي، كانت الصعقة الوجدانية كبيرة، فقد رأى الشاعر أباه العملاق، لكن بأية صورة؟!

«رأه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالت ظلمات الاعتقال منه» (٢٤)، و«لا يعلم إلا الله كيف خفق قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلاً، وكانت المعاني السود والبيض تلذع قلبه لذعاً عنيفاً، والعواطف العاصفة لا يعرفها غير الأطفال» (٢٥).

فكانت قصيدة الاستقبال مشوبةً بكل الانفعالات المتعارضة:

طَلُوعٌ هَدَاهُ إِلَيْنَا الْمَغِيبُ	وَيَوْمٌ تَمَزَّقَ عَنْهُ الْخَطُوبُ
لَقَيْتَكَ فِي صَدْرِهِ شَاحِباً	وَمِنْ جِلْيَةِ الْعَرَبِيِّ الشُّحُوبُ
إِلَيْهِ تَحَجُّ النَّفُوسُ الصَّدُورُ	وَفِيهِ تَهْنِي الْعَيُونُ الْقَلُوبُ
تَعَزَّيْتَ مَسْتَأْنَساً بِالْعِبَا	دِ وَاللَيْثُ فِي كُلِّ أَرْضٍ غَرِيبُ
وَأَحْرَزْتَ صَبْرَكَ لِلنَّائِبَاتِ	وَلِلدَّاءِ يَوْماً يَرَادُ الطَّيِّبُ
لِحَا اللَّهِ يَوْماً أَرَانَا الدِّيَا	رَ يَنْدُبُ فِيهَا الْبَعِيدَ الْقَرِيبُ

وما كان موتاً ولكنّه
لئن كنت لم تستربّ بالزمان
رمى بك والأمر ذاوي النبات
ولما جذبت زمام الزمان
ولما استطال عليك الزمام
رجوت البعاد على أنه
رحلت وفي كتل جفن دم
ولا نطق إلا ومن دونه
وأنت تعللنا بالآيا
وسرّ العدا فيك نقص العقول
أما عليم الحاسد المستغر
قدمت قدوم رفاق السحا
فما ضحك الدهر إلا إلي

فراق تُشقُّ عليه الجيوبُ
فقد كان من فعله ما يريبُ
فآل وغصن المعالي رطيبُ
أطاع ولكن عصياك الحبيبُ
وذلل فيك المطي اللغوبُ
كفيل طلوع البدور الغروبُ
عليك وفي كل قلبٍ وجيبُ
عزاء يغور ودمع ربيبُ
ب والصبر مرتحل لا يؤوبُ
وأعلم أن لا يسرّ اللبيبُ
أن الزمان عليه رقيبُ
ب تخطر والربع ربع جديبُ
ك مذبان في حاجبه القطوبُ

إن الإلم في حياة الرضي، والذي يعكسه شعره بجلاء تام، أصبح أكثر من حالات نفسية حزينة، بسبب حوادث مؤلمة، لقد أصبح خبرة متميزة، لها خطوطها الطويلة والعريضة، وجذورها العميقة، وآثارها البارزة.

ورغم الأوقات السعيدة التي كانت تعقب فترات العناء والشدة والحزن الممض، فقد أصبحت للألم في حياة الشريف الرضي فلسفة متناثرة في شعره.

ولم تكن أوقات الفرح بقادرة على خداعه، مع أنه لا يخفي سعادته، وكانت فرصة رد الأعمال القديمة إلى والده وهي النقابة وإمارة الحج والنظر في المظالم، وذلك في جمادي الأولى سنة ٣٨٠ مناسبة لتهنئة والده وإبداء الفرحة، فقال:

انظر إلى الأيام كيف تعودُ وإلى المعالي الغرّ كيف تزيدُ

وإلى الزمان نبا وعاود عطفه فارتاح ظمآن وأورق عودُ
قد عاود الأيام ماء شبابها فالعيش غصٌّ والليالي غيدُ

لكن الحكمة المبتوثة في أبيات القصيدة، هي نتاج الألم وخبرته، وهي التعبير عن النهج النقدي المرير الذي لازم شعر الشريف الرضي، وزوَّده بعناصر الثورة، لذلك فهو يذكر:

ما السؤدد المطلوب إلا دون ما يرمي إليه السؤدد المولودُ
فإذا هما اتفقا تكسرت القنا إن غالباً وتضعض الجلمودُ
وأجلُّ ما ضرب الرجال بحدّه الـ أعداء مجدُّ طارفٌ وتليدُ

وبلا شك أن طريق السؤدد المولود مليء بالأحزان، والمتاعب، وهي أكبر بكثير من مشقات وتضحيات السؤدد المطلوب، بمعنى أن الآلام القادمة والتي تنتظر حياة الشاعر هي قدره المحتوم، وما دام غير قانع بالمكاسب المحدودة، فهو مقتنع بالعذاب الذي لا بد منه.

إن التعاسات أفضت بالشريف الرضي إلى اغتراب يتفجر حكمة وبعد نظر.

الإغتراب الروحي في حياة وشعر

الشريف الرضي

إن العناصر الأساسية المكونة للإغتراب الروحي في التجربة الحياتية والشعرية للشريف الرضي هي أولاً: الأصل الفجائعي للسلالة الهاشمية، وأهل بيت النبي بالذات، والذي يشكل خلفية تاريخية مأساوية تهطل منها معطيات أبدية وفلسفية في البلاء، والعزاء، والإصرار الدائم على تلمس الجذور الدامية للمأساة.

وتشاء الخلفية التاريخية هذه أن تكون تأثيراتها قبل الولادة، لأنها تجري في الدم وفي حركة الأعصاب، وفي الموروثات العضوية، قبل التوارث الروحي والثقافي الذي تنقله الطقوس والتقاليد الدينية والاجتماعية.

ثانياً: الزهد والمعرفة الدينية، وهما من سمات السلالة ومن إرثهما المنقول من الآباء إلى الأبناء.

وقد بينت صحف التاريخ الإسلامي أن آباء وأجداد الشريف الرضي كانوا أوعية للعلم والمعرفة الربانية، وكانوا زهاداً، عابدين، قانتين، شغلهم مناجاة الله عن المطامع الدنيوية الرخيصة، ولم يكن لأحدهم إعراضاً عن حقهم في السعي من أجل نشر العدل في الحياة الدنيا، بل هو تعبير عن وحدة ذلك الحق مع الفقر، لأن العدل لا ينشأ إلا من القاع الاجتماعي، والبساطة، والتواضع، ورفض الثراء والجاه والغرور الزائف.

ومما زاد ويزيد في زهد العارفين، القانتين، والأئمة الأعلام، الطهورين، تفاقم الفساد والإحتيال والغدر، وهدر الأخلاق، وسيادة منطق القوة والقهر والإبتزاز والإرشاء، وكل المباذل التي تهوي بالمجتمع إلى الحضيض. فكلما تزداد كفة الميزان ميلان لصالح الفساد، فإن العلماء يزدادون زهداً واحتماءً بالدين والقيم الروحية.

وفي عصر الشريف الرضي، تعرض الوجود القومي العربي، إلى مؤثرات فارسية قوية، فكان البويهيون يسوسون الأمور بأهوائهم ونزعاتهم الطائشة، فيصادرون ويعزلون ويولون، ويقطعون الإقطاعات الواسعة لمن يشاؤون، فكانوا عاملاً مباشراً في سوء توزيع الثروة، أدى إلى تفاوت طبقي فاحش، وأوجد طبقة ممعنة في الترف والنعيم وطلب المسرات والخروج بها إلى حد الشذوذ، ولعل من أسباب ذلك أيضاً، ما طرأ على هذا العصر من ضعف الوازع الديني، ومن فساد الأسرة بسبب الإختلاط والتزواج، وبسبب

كثرة القيان وإباحة المنكرات، والتعلق بمظاهر الحياة المادية تعلقاً شديداً مفرطاً. فقد رأى هذا العصر سيلاً هائلاً من العناصر الدخيلة، كما نشطت فيه تجارة الرقيق، كل ذلك ساعد على الانحلال الإجتماعي، بحيث صارت محلات القيان والغلمان أمراً معتاداً يتردد عليها الناس، ويرتادها الكثيرون، وتطرح فيها الحشمة^(٢٦). وكانت مجالس الأشراف والوزراء «تألف هذا النوع من الحياة التي أصبح فيها المجون والخلاعة نوعاً من الترف الحضاري، والنظرُفُ الإجتماعي»^(٢٧).

ويُحكى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة، والتبسط في القصف والخلاعة وهم: ابن قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي، وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبي، فإذا تكامل الأنس، وطاب المجلس، ولذَّ السماع، وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار، وتقلبوا في أعطاف العيش، بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها، مملوءاً شراباً قُطْرُبِلياً، أو شراباً عُكْبْرِيّاً، فيغمس لحيته فيه، بل ينقعها حتى تتشرب أكثره، ويرش بها بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبغات، ومخائق البرم»^(٢٨).

وكان الوجه الآخر للترف والمجون انتشار البؤس والفاقة، في القاعدة الإجتماعية العريضة، وعيش العلماء البعيدين عن السلطة في حرمان وفاقة. فكان أن هجر بغداد - مثلاً - أديبها الكبير، وفقهها الشهير، عبد الوهاب المالكي، وقذف في وجه عصره بأشنع وصمة، وهو يقول لمودعيه: «لو وجدت بين ظهرائكم رغيفين كل غداة وعشية، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنيّة»^(٢٩).

بل إنَّ الوزير المهلي الشاعر المترف، كان قبل اتصاله بالسلطان يشكو القلة، ويقاسي الحرمان مثل غيره من أبناء السواد الأعظم في عصره، فاشتهى اللحم ذات يوم، فلم يجده، فارتجل الأبيات التالية:

ألا موتٌ يباعُ فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موتٌ لذيدُ الطَّعمِ يأتي يخلُّصني من العيشِ الكريه
إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ وددْتُ لو أنني مما يليه
ألا رحمَ المهيمُنْ نفسَ حُرٍّ تصدَّقْ بالوفاةِ على أخيه^(٣٠)

إن اجتماع الفقر والفساد الأخلاقي والثراء الفاحش خلق وسطاً صالحاً للتأثيرات المنافية للدين الإسلامي وللتقاليد العربية الإسلامية، وكانت هذه التأثيرات أدوات الأقوام والدول المعادية للعرب في إثارة البلبلة في الصف العربي، وتهيئة أجواء الفتنة التي مهّدت للحروب المتتالية ضد العرب.

فكان الزهد موقف الرفض التام للإنحرافات الشاذة التي طعنت الإسلام والعروبة في الصميم. وكان على مراتب ودرجات. وهي في مجموعها تهتدي بسلك النبي الكريم المعروف بزهده وتقشفه. وقد كان الحديث النبوي: «اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعملْ لآخرتك كأنك تموت غداً» هو المقياس الذي حدده الإسلام، وهو «التقوى على أساس العمل للدارين لا تقوى المترهبين المستغرقين في التأمل والعبادة. وقد استطاع الإسلام أن يحقق المثل الأعلى الذي صورته نظرياً للشخصية المسلمة. فتجلّى في كثير من صحابة رسول الله ﷺ ذلك الطراز العامل لدنياه وآخرته، المتعاون في سبيل خلق الحياة الصالحة لأفراد مجتمعه»^(٣١).

وقد استلهم الشريف الرضي نظرتَه إلى الدنيا من القرآن الكريم: ﴿يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا. إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ

بالله الغرور» (٣٢).

فقال الرضي في شعره:

ما لي إلى الدنيا الغرورة حاجةُ فليخزَ ساحرُ كيدها النفاثُ
طلقتها ألفاً لأحسمَ داءها وطلاقٌ من عزمِ الطلاقِ ثلاثُ
سكناتها محذورةٌ وعهودها منقوضةٌ وحبأُها أنكاثُ
أمُ المصائب لا يزال يروعنا منها ذكور نوابٍ وإنشاثُ
إني لأعجبُ من رجالٍ أمسكوا بحبائل الدنيا وهنَّ رثاثُ
كنزوا الكنوز وأغفلوا شهواتهم فالأرضُ تشبع والبطنون غراثُ
أتراهم لم يعلموا أن التقى أزوادنا وديارنا الأجداثُ (٣٣)

أما ثالث العناصر المكونة للإغتراب الروحي للشريف الرضي فهو تفوقه العقلي، وتمتعه بمؤهلات ومزايا شخصية كبيرة تتناسب مع دوره الطليعي ورسالته الدينية والاجتماعية.

وقد تجلت الجدارات العقلية والأدبية، ورهافة الشعور، وشجاعة الطبع في الشريف الرضي منذ طفولته، فكانت غربة الذكاء النادر من سماته الأولى، فقد قال من أحسن الشعر وهو في العاشرة من عمره، وكانت غربة الإحساس الصقيل، الإنفعالي المرهف قد بكرت معه منذ طفولته، فلا عجب أن زار الشيب شعر رأسه في العشرين، و«شيب الرأس من شيب الفؤاد».

فيذا ما جاز تشبيه الناس بالمعادن، فإن الشريف الرضي كان من أكرمها وأغناها، وفي حديث نبوي: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخيرهم في الجاهلية، خيرهم في الإسلام إذا فقهوا» (٣٤).

وقد توفرت في الشريف الرضي صفات «ذهبية» متكاملة من ذكاء،

وشجاعة، وكرم وسخاء ورهافة حس، وحب للناس، وقد شملته عاطفة غامرة، كان يجود بها على الأصدقاء والأقربين ففاض بها شعره مثلما فاضت بها نفسه.

وكما في كل العصور فإن الشخص المتفوق، المرفه، المبدع، يجد نفسه غريباً بين أوساط من الناس الذين تتجاذبهم الأطماع والأهواء، الذين ينعقون مع كل ناعق، ولا يعرفون للحق سبيلاً.

ويشهد التاريخ أن العوامّ الذين لم تشملهم الهداية وعوامل التغيير الثقافي الإنساني، هم الذين حاربوا وطاردوا الرسل والأنبياء والصالحين وذوي الكرامات والمتقدمين المبرزين على طريق الفلاح.

ولم يكن الشريف الرضي في غربته الروحية أقل بلاءً من الذين امتحنهم البلاء فما ازدادوا إلا صلابة وإيماناً.

وأول غربة في طريق الإغتراب الروحي الطويل كانت غربة النفس، والتي قال فيها الشاعر الرضي:

النفسُ أدنى عدوِّ أنت حاذره والقلبُ أعظم ما يبلى به الرجلُ
وكانت قصيدة هذا البيت تدم الزمان، الذي لم تنقض فيه الحاجات
في حين كان الشباب يولي مسرعاً:

ولّى الشباب وهذا الشيب يطرده يفدي الطريدة ذاك الطاردُ العجلُ
ما غازل الشيب في رأسي بمرتحلٍ عني وأعلم أني عنه مرتحلُ
من لم يعظه بياض الشعر أدركه في غرّة حفته المقدور والأجلُ
من أخطأته سهام الموت قيده طول السنين فلا لهو ولا جدلُ
وضاق من نفسه ما كان متسعاً حتى الرجاء وحتى العزم والأمل (٣٥)

إن نفس الشريف الرضي المشدودة بالأيام الأولى التي لا عودة لها، لم

تجدد في بقاء الحياة أي أمل :

وكيف نأمل أن تبقى الحياة لنا وغير راجعة أيامنا الأول

وتبعاً لثقافة الشريف الرضي فإن أفكاره عن «النفس» متصلة اتصالاً وثيقاً بثقافته القرآنية، أولاً، وبتجربته الشخصية ثانياً.

ويُعدُّ قول الرسول: «أعدى أعداؤك نفسك التي بين جنبيك» هي المؤشر الرئيسي الذي تلقفه الثقة، الذين وضعوا نصب أعينهم هدفاً كبيراً وهو تطهير النفس، وتحريرها من كل الموبقات والشوائب والسلبيات. فالتطهير هو الطريق إلى معرفة النفس، وأن الجهل بالنفس هو - في واقعه - إتباع هواها والابتداع برغباتها.

وحينما كان الشريف الرضي يعقد موازنة بين عداوة الناس وعداوة النفس، كان يرى أن نفسه أعدى له من جميع الناس، ويقول في ذلك:

أروم انتصافي من رجالٍ أباعدٍ ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا
إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه فلا يحدثن في خلة الدهر مطمعا

ولا ينخدع الشريف الرضي بما يصيب النفس من حالات صفاء مؤقتة، لأن نظراته كانت تتردد إلى أغوار النفس البعيدة، مدركاً صلتها بالزمن وبالموت.

فعلى هاتين الصلتين انبنت أفكاره عن النفس. وهو يختلف في نظرتيه إلى الزمن عن نظرة (أبي العلاء المعري)، فقد كان المعري ذا نظرة وجودية، وعقلية، مشتركة، لا تلقي بالإتهام على الزمن، وإنما على البشر الذين حق على الزمان أن يشكوهم لو استطاع تكلماً.

قال المعري:

نبيكي ونضحك والقضاء مسلطٌ ما الدهر أضحكنا ولا أبكنا

نشكو الزمان وما أتى بجناية ولو استطاع تكلماً لشكنا (٣٦)
وتنطلق نظرات المعري الوجودية والعقلية من إيمانه بقضاء الله الذي
لا راد له، ويقدره، فهو يقول:

قضى الله فينا بالذي هو كائنٌ فتمّ وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الإنسان من مُلك ربّه فيخرج من أرضٍ له وسماه (٣٧)

ويقول:

رددت إلى مليك الحقّ أمري فلم أسأل متى يقع الكسوف
لكم سلم الجهول من المنايا وعوجل بالحمام الفيلسوف (٣٨)

أما الشريف الرضي فقد كان يرى في الزمن خصماً لدوداً . . .

لأنه الزمن الذي آل إلى فجيحة أهل البيت وشهد دماءهم المتناثرة على
أرض كرب وبلاء، وهو الزمن الذي شهد سجن ونفي أبيه، ومصادرة
أملكه، وهو الزمن الذي يسوس فيه الأمور العلوج والسفهاء، فيما يتعرض
فيه أهل الرئاسة الحقيقية إلى المحن والمصائد .

ورغم أن الزمن مزدوج تارة، كما يقول:

كُلُّ شيءٍ من الزمان طريفٌ والليالي مغانمٌ وحتوفٌ

إلا أن لعبة الزمن ثابتة:

عادةً للزمان في كُلِّ يومٍ يتنأى خلٌّ وتبكي طولُ
فالليالي عونٌ عليك مع البيء من كما ساعد الذوابل طولُ

وهو في هذه اللعبة مغترّب كبير مهدور الطموحات، كثير الشقاء، شديد
التحسس بالماضي، بذهاب أقوام، وباحتمية ذهاب آخرين. وهو يرى الدهر وسط

الإغتراب، فهو لم ينصره يوماً ما، بل أحاطه بالخذلان، فقال:

فما لي طول الدهر أمشي كأنني فضلي في هذا الزمان غريبُ
إذا قلتُ قد علقتُ كفي بصاحبٍ تعودُ عوادٍ بيننا وخطوبُ

ويقولُ:

يقولون نمّ في هدنة الدهر آمناً فقلتُ ومن لي أن يهادني الدهرُ
هل الحرب إلا ما ترون نقيصةً من العمر أو عدمٌ من المال أو عسرُ
فلا صلح حتى لا يكون لواجِدٍ ثراءٌ ولا يبقى على وافرٍ وفرُ
ويستجيب الشاعر - أحياناً - إلى دعوة العقلاء الداعين إلى مسايرة الدنيا، ولكنه يرى أن الدنيا، مهما دخل في مداراتها، فإنها مخادعة، حتى في زخرفها العلني، ومتاعها اللذيذ، وهو يشدّد على عدم الإنخداع بها ف:

هيهات يا دنيا وبرقك صادق أرجو فكيف إذا وبرقك كاذبُ

ومهما أوتي من قوة لإرغام نفسه على مسالة تصاريف الزمان، فإن النجاحات لم تكن بمستوى المأمول، بل دون ذلك بكثير.

وكثيراً ما حمل شعره رداً على نفسه، وهو في مونولوج الحوار الداخلي، وتذكير نفسه بضرورة توفر الناصر والمعين، فيما لا يجني من محاربة الزمان شيئاً، لأنه في تلك المحاربة يبقى قليل الناصر، فيقول:

سالمٌ تصاريف الزمان فمن يرمُ حرب الزمان يعدّ قليل الناصرِ

كذلك حمل شعره ردوداً على الذين قالوا له بضرورة مماشاة الدهر، لخصها

قوله:

يقولون ماشِ الدهر من حيث ما مشى فكيفَ بماشٍ يستقيم وأظلعُ

وما واثق بالدهر إلا كراقدٍ على فضل ثوب الظل والظل يسرعُ
وقالوا تعلق إنما العيش نومةً يقضُ ويمضي طارق هم أجمعُ
ولو كان نوماً ساكناً حمدته ولكنه نومٌ مروعٌ مفرعُ

إن الوطيس الحامي بينه وبين الدهر، قد عززه سوء الحظ الذي حاله، مثلما حالف ذوي الفضل الذين أوزرت بهم الدنيا. ولم يستطع الشاعر أن يتوقف عن مهاجمة سوء الحظ ونكد الدنيا، محملاً الدنيا - نفسها - مسؤولية سوء الحظ الذي انتظمه الزمان له ولأسرته خرزة، خرزة، حتى صار تراثاً مأساوياً ضخماً، قال الشاعر:

ومن عجب صدود الحظ عنا إلى المتعممين على الخزايا
أسف بمن يطير إلى المعالي وطار بمن يسف إلى الدنيايا

ويرن سوء الحظ في شعر الشاعر كثيراً ف:

ما الذنب للمزن جازتي مواطره وإنما الذنب للأرزاق والقسم

لكنه يخلص - دوماً - إلى النتيجة المعلومة، إلى عهر الدنيا وابتذالها، وانعدام العدالة فيها:

وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنع آونة وللإعطاء
طوراً تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء
وتداول الأيام يبلينا كما يبلي الرشاء تطاوح الأرجاء

وترتبط أفكار الشريف الرضي عن (الزمن) ومأساويته ارتباطاً قوياً بأفكاره عن (الموت).

بل إن الشاعر المرهف الإحساس، والمبدع، والجمالي، يرى في الموت السبب الأول لاغترابه الروحي، وأنه يعتمد إلى قهر هذا الإغتراب بالكفاح، والتمرد، والثورة، وصنع الأحداث، والحب، والإستغراق في تفاصيل الحياة

السياسية والعاطفية، إلا أنه - أي الإغتراب الروحي - ثعبان النفس الذي يخرج من الظل ماداً رأسه إلى الحياة، لكنه مشير إلى الموت. وليس غريباً على الشعراء أن يتحدثوا عن الموت، لأنهم بإحساسهم المتدفق الذي خبروا فيه غنى الحياة، شخصوا الحياة كحقيقة، لكنهم بالعقل والإحساس شخصوا الموت كحقيقة الحقائق.

وقد استخلص الأنبياء من الموت تصورات عظيمة عن الحياة والبعث، وأعطوا لوائح خالدة في الوعظ والتربية ورسم صور مثالية للسلوك الانساني، للفرد والجماعة.

ولم يهرب الشعراء من حقيقة الحقائق: الموت، بل واجهوه بمستويات مختلفة من النظر والرؤية.

على أن حكمة الموت الأساسية هي: ما دام الموت حتماً محتوماً، وقدرًا ثابتاً، إذن على المرء أن يكون حقيقياً مع نفسه ومع سواه. وعليه أن يحسم تناقضه الداخلي باتجاه التحرر من أي نفاق فكري وسياسي واجتماعي، لأنه لا يعلم متى يحين أجله.

فالموت يدعو إلى التطابق مع النفس، ويدعو إلى الشجاعة أمام ما هو دون الموت. بمعنى آخر أن الموت هذا السيد المطاع الذي لا يدع مجالاً لأي إنسان للركوع أمام سلطان آخر دونه.

وقد أمد الموت الشعراء بأصناف رفيعة من الحكمة، لأنهم وهم يفتحون عيونهم عليه كانوا يرون التفاهات الدنيوية الصغيرة، ويقفون عندها باستهانة مثلما وقف عمر بن الخطاب بأصحابه يوماً على مزبلة... فأطال الوقوف حتى أضجرهم فقالوا: ما لك حبستنا هنا فقال: هذه دنياكم التي تتنافسون عليها^(٣٩).

وإن كل الممارسات والأساليب التي يلجأ إليها الإنسان في تهالكه على

السلطة والمال والمطامع الدنيوية، من قتل، وغدر، ونفاق، وشااية، وتشويه، وإذلال، وكذب، تبدو إزاء حقيقة الموت الحاتمة مجرد نذالات صغيرة، تدمغ صاحبها بالتفاهة والخسران المبين.

ولقد رأى الشاعر العربي القديم حكمة الموت في بطلان النعيم الباطل لأنه زائل لا محالة، وليس البقاء إلا لوجه الله تعالى.

فقال لبيد بن ربيعة في البقاء الإلهي :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ

والموت - أصلاً - يدفع الانسان إلى تعزيز اتجاهاته الأصيلة، وسماته الحقيقية، في التمسك بالحق، فقال زهير بن أبي سلمى :

بدا لي أن الله حقٌّ فزادني إلى الحق تقوى الله ما قد بدا ليا

ومثلها رأى الشعراء بقاء الله وأزليته، فقد رأوا أيضاً بقاء البلاد بجبالها ووديانها وأنهارها، بأرضها وبسائها، فأدخلوا الحس الوطني في شعرهم، من خلال حكمة الموت ودلالته في الفناء والبقاء.

وفي ذلك قال زهير بن أبي سلمى :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا
وألاً السماء والبلاد وربنا وأيامنا معدودة واللياليا

وأضاف الشعراء إلى البقاء الالهي الأزلي، وبقاء البلاد، وقيمة العمل الصالح منطلقاً نظرياً ودليل عمل وسلوك لدى الشعراء المؤمنين بوجود الله تعالى.

وأغنت الثقافة الاسلامية تصورات الشعراء، وخاصة في مجال الأفكار الأساسية التي شرحت البعث والحساب، والبدء والمعاد. فتطورت تصورات

الشعر العربي القديم بعد نشوء الاسلام، وأصبحت الآيات القرآنية ملهماً أساسياً في التأكيد على الدلالات الروحية والأخلاقية في البعث والنشور وأصبحت للعمل الصالح أهمية استثنائية مرموقة في تحديد هوية المسلم المؤمن .

ومن الآيات البينات التي تذكّر الانسان بالمعاد:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤٠).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ (٤١).

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدُّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٤٢).

﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ﴾ (٤٣).

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (٤٤).

وقد عبّر علي بن أبي طالب خير تعبير عن حكمة الموت والعلاقة بين البعث والعمل الصالح قائلاً:

ولو أننا إذا متنا تُركنا
ولكننا إذا متنا بُعثنا
لكان الموت راحة كل حي
ونسأل بعده عن كل شيء

وقال أيضاً:

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
إلا التي هو قبل الموت بانها

وأصبحت هداية الشعراء متمثلة بمعرفة حكمة الموت، فيقول أبو

نواس :

الموتُ ضيفٌ فاستعدَّ له قبل النزول بأفضل العُدَدِ
واعملْ لدارٍ أنتِ جاعلُها دار المقامة آخرَ الأمدِ
يا نفسُ موردك الصراطُ غدًا فتأهبي من قبل أن تردي

وقال :

إنَّ للموتِ لسهُماً واقعاً دونك أو بكِ
فعلى الله توكلُ وبتقواه تمسكُ

وحيث إن الشريف الرضي عالم ضليع في الديانة الاسلامية والروحانيات، جمع العلم الوهبي بالعلم الكسبي، فقد كانت له من المفاهيم الاسلامية عدة كبيرة لتقويم شعره بأفكار ثرية بالحكمة والمعرفة والموعظة والسداد. وكانت للشاعر المتنبي تأثيراته الواضحة في بداية التجربة الشعرية للشريف الرضي، سواء أكان ذلك في أغراض الشعر، أو في تركيبه.

وقد كان للمتنبي مع الموت حوار ناب، صارخ، غني بالتصورات والمفاهيم الراسخة.

وكان وصف المتنبي للموت مزيجاً من الذكاء والطرافة في التشبيه. فهو

يقول :

وما الموت إلا سارقٌ دقُّ شخصه يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلٍ

ويشير المتنبي إلى أن الموت معروف الطباع بالصفات، لا بالتجربة الشخصية، لأن ليس هناك من أب بعد موت، حتى يشرح ما لاقى وما رأى، فيقول:

فالموتُ تُعرفُ بالصفاتِ طباعه لم تلقَ خلقاً ذاق موتاً أثباً

وتقترن حتمية الموت لدى المتنبي بالشجاعة وضرورة الموقف الحازم

الحاسم، فهو يقول:

نحن بنو الموق فما بالننا نعافُ ما لا بدُّ من شربِهِ
تبخلُ أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هي من كسبِهِ
يموت راعي الضأن في جهله ميتةً جالينوسَ في طبِّهِ
فلا قضي حاجته طالبُ فؤادُهُ يخفق من رُعبِهِ
ويقول أيضاً:

وإذا لم يكن من الموت بدُّ فمن العجز أن تموت جباناً

أما الشريف الرضي فقد أودع فكرة وحكمة الموت في العديد من قصائده منطلقاً من عذاب الروح الذي ساقه في دروب الاغتراب الطويل، فاغتراب الروح هو الاغتراب الأكبر، الذي كان الشاعر ينظر - من داخله - إلى وضعه الشخصي، وحياته، ومماته.

فلقد رأى في سجن الروح في جسده السجن الذي تتضاءل دونه العذابات الأخرى. فقال الشريف الرضي:

كلُّ حبسٍ يهون عند الليالي بعد حبس الأرواح في الأجسادِ
وهو بيت شعر من قصيدة جاء فيها:

كلُّ حيٍّ يغالط العيش بالدهر ر وكلُّ تعدو عليه العوادي
لو رجعنا إلى العقول يقيناً لرأينا الممات في الميلادِ
كيف لا يطلب الحمام عليلٌ حُكَّ الدهرُ فيه رأيي المعادِ

ويسمو الرضي في ذكر الموت، وفي وعظ الناس، والتذكر بالقيم الإنسانية المجيدة (الحرية، والشجاعة، ورفض الذل، الخ)، ويأخذ الرثاء عنده مهمة توجيه العزاء بواسطة الحكمة.

فقال يرثي بنت صديق له :

عجزنا عن مراغمة الحمام
وما جزع الجزوع وإن تناهى
وأين نحور عن طرق المنايا
هي الأيام تَأْكُلُ كُلَّ حَيٍّ
وكلُّ مفارقٍ للعيش يلقى
وكم ليدِ النواذب من صريعٍ
وما يغترُّ بالدنيا لبيبٌ
تنافرْ ثم ترجع بعد وهنٍ
خطوبٌ لا أجْمُ لها جوادي
رأيتُ الموت يبلغ كلَّ نفسٍ
سواء إن شددت له حزمي
عزاءك ما أستطعت فكلُّ حزنٍ
وعمر المرء ينقص كلَّ يومٍ

وداء الموت مغرئٌ بالأنام
بمتصفٍ من الداء العقام
وفي أيدي الردى طرف الزمام
وتعصف بالكرام وباللثام
كما لقي الرضيع من الفطام
بداء السيف أو داء السقام
يفرُّ من الحياة إلى الحمام
رجوع القوس ترمح بالسهام
وعزْمٌ لا أحطُّ له لثامي
على بعد المسافة والمرام
زماعاً أو حللت له حزامي
يؤول به الغلُو إلى الأثام
ولا عمرٌ يقرُّ على التمام^(٤٥)

وتختلف فلسفة الشريف الرضي في الموت، عن فلسفة أبي العلاء المعري، وذلك في قضية رئيسية وهي أن الشريف الرضي صاحب رسالة، وكانت الرسالة لا تمثل طموحه فقط، بل وتمثل طموح نسبة كبيرة من المواليين والأشياع. كان قائداً له أتباع أوفياء رغم قتلهم.

ومن موقعه ذلك، كانت رؤيته للموت مليئة بالأفكار الايجابية التي كانت تعبر أفضل تعبير عن (الموقف) في حياة الشريف الرضي.

في حين كانت رؤية أبي العلاء المعري للموت تشاؤمية، بالغة التشاؤم، كما نرى في هذه المقتطفات من شعره:

أنا صائمٌ طول الحياة وإنما فطري الحمام ويوم ذاك أعيدُّ

و:

نصحتك فأعمل له دائماً وإن جاء موتٌ فقل مرحباً

و:

ما أوسع الموتَ يستريحُ به الـ جسم المعنى ويخفت اللجبُ

و:

يدلُّ على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعبُ

و:

إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً فثمَّ أفقد أوصابي وأمراضي

و:

الموت جنسٌ ما تميّز واحدٌ كتل الجسوم إلى التراب تنسبُ

وترتفع نزعة التشاؤم بقوله:

يحطمننا رب الزمان كأننا زجاجٌ ولكن لا يعاد له سبكُ

وإذا كانت القضية التي رفع لواءها الشريف (وهي قضية سياسية وأيديولوجية وأخلاقية)، هي التي عصمتها من الوقوع في تشاؤمية مفرطة، فإنها لم تفلح - من جانب آخر - في إخفاء الحزن العتيد، حزن الشريف الرضي .

وتشهد بكائيات وراثيات الشريف الرضي على مدى تغلغل الحزن في أعماقه ، وكذلك مدى تجاوبه مع الحزاني والمنكويين .

ويذكر د. زكي مبارك «أن الرضي كان يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تغيض» وعن بكائه يقول: «وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت . لا ، وإنما كان يصل أحبابه بالذكرى والحين فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس . فطريق الحنج على طوله في تلك

العهد كان يمثل للشريف دائماً أمماً كثيرة من عوالم الأحياء والأموات. ولعل ظهور الخيل لم تعرف فتى أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء. والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد لو تعلمون»^(٤٦).

من ناحية سيكولوجية إن البكائين الاصلاء هم - غالباً - من الذين تجمعت في نفوسهم شمائل جمّة هي شدة الحب، وشدة الصدق، وقوة رهافة الاحساس.

ومن المظاهر السلبية للثقافات الشائعة في عصور الاستبداد والتحجر، انها صورت البكاء تعبيراً عن الضعف البشري، والحال أنه تعبير عن عاطفة بشرية حقيقية لا يستطيع كبتها إلا أكثر الناس قساوة وتجبراً.

ومن المعروف أن المصلحين الكبار ذوي القلوب الانسانية العامرة بحب الناس، وبالْحكمة، هم أكثر الناس بكاءً، وهم على ما هم عليه من شجاعة وبسالة ويقين.

وكان الشريف الرضي الانسان، والرائد المصلح، شديد العبرة، قوي التعاطف مع المتكولين. وهو في ذلك يشبه آباءه الأولين الذين كانوا يبكون الليل من خشية الله حتى ذبلت عيونهم.

ويقول د. زكي مبارك: «ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب: والشجى يبعث الشجى، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك» أليس من العجيب أن يُسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول:

ألا مخبرٌ فيما يقول جلية يزيل بها الشكَّ المريبَ يقينُ
اسائله عن غائب كيف حاله ومن نزل الغبراء كيف يكون
وما كنتُ أخشى من زماني أني أرقُّ على ضرائه وألينُ

إلى أن رماني بالتي لا شوى لها
وإنَّ أحقَّ المجهشين بعبرةٍ
وما تنفع المرءَ الشمالُ وحيدةٌ
تجرّمُ عامٌ لم أنل منك نظرةً
أمرُّ بقبرٍ قد طواك جديدهُ
وتنفُضُ بالوجد الأليم أضالعُ
فأعقب من بعد الرنين أنينُ
ووجد قرين بان عنه قرينُ
إذا فارقتهما بالمنون يمِينُ
وحان ولم يقدر لقاءك حينُ^(٤٧)
فأبلس حتى ما أكاد أبينُ^(٤٨)
وترفضُ بالدمع الغزير شؤونُ

ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالنائحة المستأجرة، وهل كانت النائحة المستأجرة تعني حقاً من دعيت للبقاء عليه؟ إنها تبكي ودائعها في التراب فهي نائحة تكلّي مفطورة الفؤاد»^(٤٩).

وبيضيف: «فالشريف يجسم معاني الأخوة وهو يبكي أصدقاءه الجهولين وهو أيضاً يشرح للناس مذاهب الوفاء».

ومن شواهد شعره في بكاء المغمورين ما قاله:

ما لي أودع كلَّ يوم ظاعناً
وأروح أذكر ما أكون لعهده
فرغت يدي منه وقد رجعت به
أحبابي الأذنين كم ألقى بكم
أحيا إخاءكم الممات وغيركم
إلا يكن جسدي أصيب فإني
لو كنت أمل للوداع لقاء
فكأنني أستودعته الأحشاء
أيدي النوائب والخطوب ملاء
داءً يمض فلا أداوي الداء
جربتهم فثكلتهم أحياء
فرقتهم فدفنتهم أعضاء

وقال في قصيدة ثانية:

أقول وقد قالوا مضى لسبيله
كأن حداد الليل زاد سواده
مضى غير رعديد الجنان ولا نكس
عليك ورد الضوء من مطلع الشمس

أرى كل رزءٍ دون رزئك قدره فليس يلاقيني ليومك ما ينسي^(٥٠)

وقال من قصيدة ثالثة وهي في رجل كانت له شخصية، ولا نعرف
السبب في طي اسمه عن الناس:

وما بعد يومك ما يسلوبه السالي	ومثل يومك لم يخطر على بالي
وكيف يسلفو فؤاد هاض جانبه	قوارع من جوى همّ وبلبال
يا قلب صبراً فإن الصبر منزلة	بعد العو إليها يرجع الغالي
نقص الجديدين من عمري يزيد على	ما ينقصان على الأيام من حالي
مضى الذي كنت في الأيام أمله	من الرجال فيا بعداً لأمالي
قد كان شغلي من الدنيا فمذفرغت	منه يدي زاد طول الوجد أشغالي
تركته لذبول الريح مدرجة	ورحت أسحب عنه فضل أذيالي
ما بالي اليوم لم ألحق به كمداً	أو أنزع الصبر والسلوان من بالي ^(٥١)

ويربط د. زكي مبارك الطبيعة البكائية للشريف الرضي بظاهرة هي من غرائب الوفاء عند الشريف وهي بكاء النساء قائلاً: «وهناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء، وهذا أغرب الجوانب، وهو يحتاج إلى تأمل ودرس، ولا نعرف بالضبط كيف نشأ الاحساس عند الشريف، فقد كان المألوف في التقاليد العربية أن لا يبكي من النساء غير المعشوقات، وبكاء الامهات والحلائل باب من النبل، ولكنه في شعر العرب قليل، فقد لا يساوي واحداً من خمسين إذا أحصينا ما قيل في الرثاء، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية الناس في امهاتهم، وبناتهم، وأخواتهم؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد، هو أن الشريف الرضي كان (ابن امه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لامهاتهم من الأطفال.

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية أمه
الرؤوم التي باعت أملاكها وحلَّيها لتقيه وتقي أخاه ذل العوز والاحتياج .

والأمُّ الرؤوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية . ويندر بين كُتَّاب
العرب من يقول حدثني امي وأنبأني اختي وأخبرتني حليلتي، وإن كان في
شعرائهم من يقبِّل النعال في أقدام الملاح .

وما اريد أن اطيل القول فيما أثر عن العرب والهنود من بغض البنات،
فذلك معروف، وإنما اريد أن أقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات
الشريف، وأنا أجزم بأنه كان يرى المرأة في صورة امه تلك الام التي وقته
مكاره الحياة في السنين العجاف يوم اودع أبوه غياهب الاعتقال» (٥٢) .

وما يهم من ذكر استطراد د . زكي مبارك، هنا، هو أن بكائية
الشريف الرضي كانت تسع الأصدقاء المعروفين والمجهولين، والأحبة
المفقودين، والناس المحزونين، لأنه في ذلك كان يجسد طبيعته البكاء، وما لم
يعطه د . زكي حقه في تحليل الظاهرة البكائية للرضي مغزي العلاقة بين الزهد
والبكاء، وفيض تلك العلاقة على جوانب الحزن والتأسي والتفجع لكل محزون أو
مفجوع .

وتمتد جذر العلاقة بين الزهد والبكاء في حياة الشريف الرضي إلى آباءه الزهَّاد
المعروفين بكثرة البكاء، وبخاصة زين العابدين بن الحسين، الباقر بن زين العابدين
وسواهما .

وقد أورد لنا أو نعيم نصاً بين فيه جوهر زهد علي بن الحسين (زين
العابدين)، وذلك أنه سئل عن كثرة بكائه فقال: « لا تلموني فإنَّ يعقوب
فقد سبطاً من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم أنه مات . وقد نظرتُ
إلى أربعة عشر رجلاً من أهل بيتي يقتلون في غزاة واحدة . أفترون حزنهم

يذهب من قلبي»^(٥٣).

أما محمد الباقر بن زين العابدين فكان يقول: «ما اغرورقت عين بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار»^(٥٤).

بل إن محمداً الباقر يقسم البكاء كما قسم المعرفة (وقد حفل أبوه كذلك من قبل) فقال: «فإن سألت على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلة، وما من شيء إلا له جزاء إلا الدمعة، فإن الله يكفر بها بحور الخطايا، ولو أن باكياً بكى في أمة لحرم الله تلك الأمة على النار»^(٥٥).

وقد ربط محمد الباقر البكاء بالذكر صراحة فقال: «الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر».

أي أن البكاء هو علامة متميزة من علامات الزهد، وهو يصنّف القلوب، ويطهر النفس من الذنوب، وهو في إطلاق عنانه في المناسبات الانسانية، الفجائية فيض رحمة.

وهكذا كان الشريف الرضي تفيض نفسه عطفاً ورقة وحناناً في كل مشهد انساني مأساوي، وفي كل ذكرى مؤلمة. لقد سمت نفسه بالتفجع، وتحررت من الغلظة والقساوة، فأصبحت تطير وتحطّ عند كل ذكرى، وقرب كل طلل.

ولم تكن روحه المتفجعة، لتستغرق في الانفعال الحزين المجرد، والذي قد يصيب البسطاء الطيبين من الناس، رقيقى الاحساس، بل كانت تغتذي من الحس التاريخي، لأن كل ظاهرة مرئية تحت بصر الشريف الرضي كانت تثير فيه الذكريات، والحدثان، وما جرى للناس، وللحواضر، وللأمكنة، من تغيير.

لقد انتبه بعمق إلى حركة الزمن في جدلية البقاء والزوال، مكتنّها تلك

الجدلية من أعمق أعماقها، ومن أول نقطة فيها، فعظمت نفسه، وتغربت، لأن الأمكنة ما بين نشوء وزوال، لم تكن قادرة على أن تستوعب جسمه الذي حمل روحاً تطير - دوماً - نحو العلى والأعلى، لكنها تسكب الدموع عطفاً ورحمةً، حتى محيت العيون من البكاء، كما قال:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها وغال بكم تلك الأضالع غوها
فمن ناظرٍ لم تبَقْ إلاّ دموعه ومن مهجةٍ لم يبقَ إلاّ غليلها
دعوا لي قلباً بالغرام أذيبه عليكم وعيناً في الطلول أجيلها

الاغتراب السياسي :

كان دخول البويهيين بغداد سنة (٣٣٤هـ) يعني نهاية نفوذ الخلافة العباسية، وبداية عهد جديد يتسم بتعاضد النفوذ الفارسي، والهيمنة الشعبية، وقد بلغ الاضطهاد السياسي درجة عالية، لما كان في بني بويه من فظاظة وقسوة وجشع وحب للمال ف «أكثروا من المصادر والعزل والسمل والقتل» ولم تتوقف النزعة الارهابية الدموية عند حد، فقد شملت حتى وزراء وأنصار البويهيين بالذات، فقد «أقدم عز الدولة بن معز الدولة على سمل وزيره ابن بقیة، وحمله إلى عضد الدولة لي طرح تحت أرجل الفيلة، ويُصلب على شاطئ دجلة. كما أقدم الأمير على قتل ابن العميد الذي مات تحت وطأة التعذيب حيث سمل وقطع أنفه»^(٥٦).

وبلغت النزعة الدموية لدى البويهيين مبلغاً عظيماً، وذلك باحتدام الصراع بين أركان السلطة البويهية، وحسمه بالقتل والضرب فكان الاقتتال وسفك الدماء والصراع على السلطة قد «وصل إلى حد أن يوافق شرف الدولة على سمل أخيه صمصام الدولة، ويزداد المرء عجباً، عندما يعرف أن يُحزيراً الخادم هو الذي أشار على شرف الدولة بما أقدم عليه ولقد كانت قبل هذا، وقعة بين بختيار وبين عضد الدولة، اندحر فيها بختيار، واشير على

عضد الدولة بالتخلص منه فأحترز رأسه»^(٥٧).

وبحكم الطبيعة العدوانية والاجرامية للحكم البويهي، ازداد الفتك والظلم والفساد، وكثرت المآسي الاجتماعية.

و«حدثنا كتب التاريخ عن المجاعات وغلاء الأسعار وعن الأمراض والموت الذي لحق بالناس، بما يعطينا صورة كافية، ويبدو أن سنة دخول بني بويه بغداد، كانت عجفاء، قد ذكر عنها مسكويه: إن الغلاء كثر فيها حتى عدم الناس الخبز، وأكلوا الموق والحشيش، وبعض البذور غير الصالحة، فلحق الكثيرين أورام في أحشائهم، ومات أكثرهم، وخرج الناس إلى البصرة يطلبون التمر فهلك أكثرهم في الطريق، كما قبض على امرأة سرقت صبياً فشوته وأكلته فضربت عنقها»^(٥٨).

ويقول ابن العماد إنه في سنة ٣٨٢ هـ، غلت الأسعار بالكرخ، حتى بيع رطل من الخبز بأربعين درهماً، والجوزة بدرهم، وفيها شغب الجند وعسكروا...»^(٥٩). أي أن اللوحة السياسية للوضع كانت تتسم بالتدهور السياسي والفوضى الاجتماعية، وتفاقم الصراعات الطائفية المذهبية التي لعب الحكم البويهي دوراً كبيراً في تأجيجها.

وإذا كان الإطار الداخلي للحياة الاجتماعية في زمن البويهيين، ينم عن اتساع نطاق الفتن الدامية، فإن الإطار العام كان ينم عن انتشار الحروب، ف«في غمرة الأحداث الدموية، كانت تدور رحى أحداث دموية أفطع منها بين العرب والفرس والترك، فلقد كانت الفتن تتجدد في كل سنة، وتتوالى، وتختلط فيها الأحداث، وتتحالف الفئات ثم تنقض الحلف، فتسفك الدماء، وتخرب البلاد، وتعم الفوضى»^(٦٠).

وبعبارة محددة إن سياسة البويهيين عملت على تصديع وحدة وقوة المجتمع العربي، وذلك بتصعيد الصراعات القومية أولاً، والصراعات الطائفية

ثانياً، في سياق نزعة عدوانية ضارية.

«وسط الأحداث المروعة عاش الشريف الرضي، وشهد النزاع الدامي الطويل وامتلات نفسه بالصور المرعبة، فمن خليفة يخلع ويسمل، إلى أمير بويهبي يحتز رأسه، ومن والد تصادر أملاكه ويسجن، إلى صديق ينكب، والروم يغزون أطراف المملكة الإسلامية، والأمر فوضى، والسلطان البويهبي معز الدولة يمتنع عن الطعام والشراب، ويتضجّر بالجيش، ويطرح التدابير، لأن غلامه التركي يؤسر»^(٦١).

في زمن البويهبيين عاش الشريف الرضي حياته الممتدة ما بين عامي ٣٥٩ هـ - ٤٠٦ هـ، وقد شهد سلب السلطة، واستلاب العروبة سلب السلطة من قبل البويهبيين، واستلاب العرب بسبب سيادة العنصر البشري الفارسي وثقافته وتقاليده.

فما هي ردود فعل الشريف الرضي، وهو ما عليه من حسب ونسب؟

فالشريف الرضي المولود في جانب الكرخ من بغداد، والذي ينتمي إلى أسرة عريقة في الحسب والنسب، وفي المجد. كان يرقب السلطة الغاشمة، وهو يحمل على هامه مجداً عتيداً راسخاً. كما أنه كان يرقب البلبلة الشعبية بعين انتباهه العربي الأصيل.

إنما بسبب مجده التاريخي، وعرويته نشأ اغترابه السياسي، وهو اغتراب الثوري الذي سئم الزمان المخادع، وأحاييله وغرائبه، محتفظاً بروح التحدي والمقارعة، على ما هو عليه من قلق، وقد أبان عن ذلك مبكراً في قوله:

سئمتُ زماناً تنتحيني صرُوفه	وثوبَ الأفاعي أو دبيب العقاربِ
مقام الفتى عجزُ على ما يضيّمه	وذلُّ الجريء القلب إحدى العجائبِ
سأركبها بزلاءٍ إمّا لمادح	يعدّد أفعالي وإمّا لنادبِ
إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصاره	وأقلع عنه الضيم دامي المخالبِ

وما بلغ المرمى البعيد سوى امرئ
وما جرّ ذلاً مثل نفسٍ جزوعةٍ
ألا ليت شعري هل تسألني النوى
إلى كم أذود العين أن يستفزها
حُسدتُ على أني قنعت فكيف بي
وما زال للإنسان حاسد نعمةٍ
وأبقتُ لي الأيام حزمًا وفطنةً
توزّع لحمي في عواجم جمّة
يروح ويغدو عرضةً للجواذب
ولا عاق عزمًا مثل خوف العواقب
وتخبو همومي من قراع المصائب
وميض الأماني والظنون الكواذب
إذا ما رمى عزمي مجال الكواكب
على ظاهرٍ منها قليل رغائب
ووقرن جأشي بالأمور الغرائب
وبان على جنبيّ وسمّ التجارب^(٦٢)

إن تطلع الشريف الرضي إلى مجال الكواكب يعبر عن آماله الكبرى، التي لم تكن مجرد كشف حال بسموه وعزّه، بل كانت تطلعاً سياسياً خدمه بكل طاقاته الروحية والشعرية، وبكل مزاياه السياسية والاجتماعية.

في البدء ثمة حقيقة شاخصة في شعر الرضي وهي اعتزازه بعلو مكائنه وشرفه، وما المصائب والهجوم التي حلت به إلا الثمن الذي لا بد للشرف من تقديمه، وقال في أبدع تعبير:

وضيوف المهموم مُد كَنَّ لا يندُ
زلن إلا على العظيم الشريف

ولم تكن افتخارات الشريف الرضي معزولةً على الأخلاقيات الاجتماعية، بمعنى أنه لم يتناول افتخاره على نحو شخصي فقط، بل هو يقرنه دوماً بالقضية السياسية والأخلاقية التي استحوزت على ذهنه ونفسه استحواداً تاماً.

فهو إذ يعتزُّ بكرامته وكبريائه وحرية وعزته، يُعلم الآخرين - أيضاً - الاعتزاز بالكرامة، ورفض الذل. وتأخذ أشعاره في ميدان مكافحة الذل وعاره مكانة الحكيم والمأثورات الغالية.

فهو يقول :

وموت الفتى خيرٌ له من حياته إذا جاور الأيام وهو ذليلٌ

وكذلك يقول :

وكلُّ فتىٍّ لا يطلب المجد أعزلُّ وكلُّ عزيزٍ لا يجود ذليلٌ

و :

لا تخلُدنَّ إلى أرضٍ تهونُ بها بالدار دارٌ وبالجيران جيرانُ

و :

الحرُّ تنهضه إمَّا شجاعته إلى الملمِّ وإمَّا خشية العارِ

وتتناثر في قصائد الرضي درر الحكم باتجاه نشر مفاهيمه عن الحرية والكرامة، والشجاعة، ونبذ التعاون والتزلف والخضوع، لكنه، وبقدر ما يتعلق الأمر به، كان يخاطب نفسه بصوتٍ عالٍ كثيراً مذكراً نفسه بالمعنى الخاص لدوره في الحياة. فهو الذي قال :

ما مقامي على الجداول أرجو ها لنيلٍ وقد رأيتُ البحارا

وكان يشدد على نفسه الحساب، عندما يتذكر علو رسالته، وقداسة هدفه. وإذا ما كانت للشريف الرضي في الشعر صبوات هائلة لكونه شاعراً عظيماً، فإن مطالب رسالته السياسية كانت أهم لديه من الشعر، بل إنه أخبر عن أنه قال الشعر ذريعةً إلى أمل كبير، ما إن يتحقق حتى يهجر الشعر :

وما قولي الأشعار إلا ذريعةٌ إلى أملٍ قد أن قودُ جنيبه (٦٣)

وإنِّي إذا ما بلَّغ الله غايةً ضمنتُ له هجرَ القريض وحبوه (٦٤)

وإن يستصغر أحياناً حرفة الشعر، بسبب قداسة رسالته، وطموحه الديني والسياسي الكبير فيقول :

وما الشعر فخري ولكننا
أنزّهه عن لقاء الرجال
فما يتهدى إليه الملو
وإني وإن كنت من أهله
أطول به همّة الفاخر
وأجعله نُحْفَةً الزائر
كإلا من المثل السائر
لتكرني حرفة الشاعر

وكذلك قال :

ما لك ترضى أن يقال شاعرُ
كفاك ما أورك من أغصانه
فكم تكون ناظماً وقائلاً
بُعداً لها من عُدَدِ الفضائل
وطال من أعلامه الأطاول
وأنت غبّ القول غير فاعل

ولم يعلن - فقط - اعتذاره عن حرفة الشعر واستعداده لهجر نظم
القصائد، وهو شاعر الحب والهوى لأن شعاره هو:

من يعشق العزلاً يرنو لغانية
في رونق الصفو ما يغني عن الكدر

وهو في انتهائه لقضيته الكبرى، كان يشدد على حاجته إلى الحزم،

والحزم يستبعد الهوى:

أضعت الهوى حفظاً لحزمي وإنما
يُصان الهوى في قلب من ضاع حزمه

ترى، أية قضية تلك التي تتمحور حولها أفكار وأشعار الشريف
الرضي، والتي يدور حولها مسار حياته؟ أية قضية تلك التي يعلن أن الشعر
والحب دونها بكثير، وأنه مستعد للأضراب عن الشعر والحب من أجل تحقيقها؟

هل هي المنصب الذي يتولى من خلاله تأدية مسؤولية معينة، في زمن
اليوميين الذين استمالوا عدداً من الشعراء والكتّاب واستوزروهم أو قلدوهم
بعض المناصب العالية؟

في الواقع كان للشريف الرضي منصبه المرموق فقد شغل منصب نقابة

الطالبين، ونظر في المظالم، وحثَّ بالناس مراراً، وأنه تسلم هذه الأعمال في أوقات مختلفة نائباً عن والده أبي أحمد الموسوي أو مستقلاً بالمنصب^(٦٥).

أما إمارة الحج فكانت هي الأخرى من المناصب التي تدل على نفوذ الشريف الرضي وقوة شخصيته، فقد كانت تحتاج إلى رجل يفرض زعامته وهيبته واحترامه على جمهور المسلمين، ويستطيع حمايتهم في صحراء واسعة يتعدون فيها عن مركز السلطة، ويتعرضون لمخاطر الغزو والسلب، وقد حج الشريف بالناس مراراً، وخالط البدو، وعاش حياة الصحراء، وعانى متاعبها ومخاطرها، فأثرت في نفسه، وحمل منها ذكريات.

ففي سنة (٣٨٩ هـ) حج الشريف بركب العراق مع أخيه المرتضى واعتقلهما ابن الجراح فافتديا نفسيهما بتسعة آلاف دينار^(٦٦).

وفي سنة (٣٩٦ هـ) تولى نقابة الطالبين بالعراق، وذكر البعض أنه تقلد النقابة وإمارة الحج، ولكن في السنة التي تلت^(٦٧).

أما في سنة (٤٠٣ هـ) فقد قُذِّد الشريف نقابة الطالبين في سائر الممالك، وقرىء تقليده في دار الوزير فخر الملك، وخلع عليه السواد، وقيل إنه أول طالبٍ يُخلع عليه السواد^(٦٨).

ولم يكن الشريف الرضي يرى في (النقابة) هدفه النهائي، غير أنه كان يراها حقاً موروثاً، فقال:

قل للعدا موتوا بغية ظكم فإن الغيظ مُردي
ودعوا عُلِّيَّ أحرزتها يا وادعين بطول جهد
كم بين أيديكم وبيد ن النجم من قربٍ وبعدي

ولي النقابة خال أمّ مي قبلُ ثمّ أبي وجدّي
 وليتها طفلاً فهل مجدُّ يعدُّ مثل مجدي
 وأظنُّ نفسي سوف تحُ ملني على الأمر الأشدّ
 حتى أرى متملكاً شرق العلي والغرب وحدي

وفي قصيدة أخرى يرد فيها على قلق بعض أعدائه من تقلده النقابة،
 أفصح فيها عن هدفه الأكبر فقال:

قلق العدو وقد حظيتُ برتبةٍ تعلو عن النظراء والأمثال
 لو كنتُ أقنع بالنقابة وحدها لغضضتُ حين بلغتها آمالي
 (لكنّ لي نفساً) تتوق إلى التي ما بعد أعلاها مقامُ عالٍ

إن الشاعر الهادر الذي ينطوي صدره على شرف رفيع وكرامة عظيمة،
 كان يعرف مقامه جيداً، وكان يسير في الزمن وكأنه يخفي مقامه الحقيقي
 عنه، لأنه متوجه نحو غايته الكبرى، ورسالته التي لا يستطيع نسيانها.

فقال:

تعرفني بأنفسها الليالي وأنف أن أعرفها مكاني

لكن مكانه ليس في منصب، أو وظيفة، بل في العلي الذي لم يكن
 بالنسبة إليه ترجمة عادية للتباهي، بل كان العلي بمعنى قيادة السلطة، فقد كان
 الرضي يرى نفسه جديراً بالخلافة، أو ليس هو الأحق بها من الديلم الذين
 جاءوا من بلاد فارس واستولوا على بغداد مستبحين تاريخ العروبة وأمجادها؟

وفي غالبية شعر الشريف يبدو ذلك الاحساس الغامر الذي يستولي
 عليه، وهو الاحساس بأنه منذور للسلطة، ومهياً لدور قيادي عظيم، لا بد
 أن يأتي حينه.

ومند حدائته عبر عن ذلك، لا بالتلميح، بل بالجهر المدوي:

ستعلمون ما يكون مني
أدعُ الدنيا ولم تدعني
ناطحةً بالجَمِّ عام القرن
وسعتُ أيامي ولم تسعني
ولي مضاءً قطُّ لم يُخني
أحصل من عزمي على التمني
راضٍ بما يُضوي الفتى ويضني
قد عزَّ أصلي ويعزُّ غصني
إنَّ الغنى مجلبةٌ للضنَّ
الفقر ينثي والتراء يذني
إن كنتُ غير قارحٍ فإني
تشهد لي أن الزمان قرني

إن مدَّ من ضبيِّ طول سني
يلعب بي عناؤها المعني
نطاح رَوْق الجازيء الأغنَّ (٦٩)
أفضل عنها وتضيف عني
ضمير قلبي وضمير جفني
وليتني أفعل أو لو أني
أسس آبائي وسوف أبني
غنيتُ بالجدود ولم أستغن
وللقعود والرضا بالوهن
والحرص يشقي والقنوع يُغني
أبذ جري القارح المسنَّ
سوف ترى غبارها كالذجن

ويواصل:

من قبل أن يغلَق يوماً رهني
والنصل عيني والسنان أذني
متى تراني والجواد خدني
وأُمِّي الدرع ولم تلدني (٧٠)

وكان وهو يرنو إلى المعالي، يعلم جيداً وعورة الطريق وكثرة الأعداء
وقلة الناصرين، لكنه هتف في داخله الهاتف فأصغى إليه، فقال وهو في
السادسة عشرة:

أمن شوقٍ تعانقني الأمان
وما أهوى مصافحة الغواني
وعن ودِّ يجادعني زماني
إذا أشتغلت بناني بالعنان
يعرِّض للضراب وللطعان

ويقول:

نشرتُ على الزمان وشاحَ عزٍّ ترنَّحُ دونه المقلُّ الروائي
سأطلع من ثنانيا الدهر عزمًا يسيل بهمة الحرب العوانِ
ولا أنسى المسير إلى المعالي ولونسيته أخفاف الحواني
وكنَّا لا يروِّعنا زمانٌ بما يعدي البعاد على التداني (٧١)

وليس هناك اغتراب سياسي، مثل اغتراب الشريف الرضي في نضاله من أجل تحقيق غايته وتنفيذ رسالته، فقد كانت بمواجهته ظروف قاسية، وشروط سياسية أقسى. فالسلطة البويهية التي اعتقلت والده المصلح الكبير، كانت قد أشهرت أسلحة العنف ضد الأشراف، وضد الوجود العربي، فاعترضت طموحات الرضي سلطة شديدة البطش، وشديدة المراوغة، وبالغة الذكاء. كذلك كان أنصاره قلةً. وكانت أكثرية العوام تصفق للسلطان.

وتطلب هدفه السامي منه إبداء المرونة في علاقاته مع الخلفاء والملوك والوزراء، بالقدر الذي رآه مجدياً لتمشية أمور المسلمين، وتحقيق غايات محددة، ترتبط بغايته الكبرى التي أنشد لها ودعا إليها بلا توقف.

لكن مرونته تلك سرعان ما تتحول إلى غضب عاتٍ، عند حصول أي استفزاز صغير أو تعريض به، أو بواحد من أهله، أو عند حصول أي إهمال أو تجاوز أو تطاول عليه من أي سلطان كان.

وعندما يغضب، يدع المرونة جانباً، ويعلو صوت حماسه وهو يذكر أصله ومعدنه الكريمين، فينتفض كملك، أو كخليفة، ويكتسب التحدي في شعره طعم التقريع، تقريع الخليفة الذي يخاطبه، دوغما خشية منه.

وفي تلك الفرص النادرة التي يغضبه الخليفة تبرز روح الشريف الرضي، الغنية بكل معاني السيادة العربية، والحق، والكبرياء التي لا تنحني أمام السلطان مهما كانت قوة سطوته وشدة بطشه.

ورغم أن الخليفة الطائع لله كانت بينه وبين الرضي مودة، إلا أن إثارته له عندما قرب بعض أعدائه إليه، جعلته يزجر غيظاً في قصيدة، مطلعها:

ونمي إليّ من العجائب أنه
وملكتك خديعة من قولة
حقاً سمعت وربّ عيني ناظر
أين الذي أضمرته من بغضه
أم أين ذاك الرأي في إبعاده
سبحان خالق كل شيءٍ معجب
يومٌ لذا وغدٌ لذاك وهذه
فالآن منك اليأس ينقع غلتي
لعبت بعقلك حيلة الخوان
غرارة الأقسام والأيمان
يقظ تقوم مقامها الأذنان
وعقدته بالسراً والإعلان
حنقاً وأبن حمية الغضبان
ما فيكم من كثرة الألوان
شيم مقطعة قوى الأقران
واليأس يقطع غلة الظمان

ثم يبلغ في نقده الذروة فيصيح:

لي مثل ملكك لو أطمعت تقنعي
ولعلّ حالي أن يصير إلى غلّي
فأحذر عواقب ما جنيت فربما
أعطيتك الرأي الصريح وغيره
وعرضت نصحي والقبول إجازة
ولقد يطول عليك أن أصغي إلى
وذوو العمائم من ذوي التيجان
فالدوح منبتها من القضبان
رمت الجناية عرض قلب الجاني
تنساب رغوته بغير بيان
فإذا أبيت لويت عنك عناني
ذكراك أو يثني عليك لساني (٧٢)

ويعد افتخاره بنفسه وهو يمدح الخليفة القادر بالله خير بيان عن اغترابه السياسي من موقع المجد، فقد ختم قصيدته التي كان مطلعها:

لمن الحدوج تهرهنّ الأينقُ والركب يطفو في السراب ويغرقُ

بثلاثة أبيات تلخص عظمة نفس الشاعر الرضي وشاعريته المجيدة،

وهي:

عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوتُ أبداً كلانا في المعالي مُعرقُ
إلا الخلافةُ مِيَزَتِكَ فإنني أنا عاطلٌ منها وأنت مطوقُ

وتوضح العلاقة بين الشاعر الشريف الرضي وأبي اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب والشاعر عن مدى تمكن هدف الخلافة من نفس الشاعر الرضي، ومن نفوس المريدين والموالين والأنصار.

فالخلافة لم تكن مجرد رغبة، أو نزوة، أو حلم عابر لشاعر ذي صبوات ورغبات وآمال، بل كانت دعوة علنية وسرية، شغلت اهتمام الشاعر طوال حياته، وشغلت العديد من الأتباع والمؤيدين.

وكان تأييد أبي اسحاق الصابي، لخلافة الشريف الرضي، رغم التباين في الديانة، دليلاً على رسوخ حق الشريف الرضي في الخلافة واقتناع بعض الناس بهذا الحق، لاسيما المرموقين منهم.

ولم يكن إعجاب الشريف الرضي بأبي اسحاق الصابي، ناجماً عن تجاوب عاطفي لدعوة الصابي إلى حقه في الخلافة، بل هو إعجاب متصل بروح الدعوة، وبمراحل انطلاقتها، وتطورها، واستمرارها، وتغلغلها في نفوس الأنصار.

ويتجاهل النقاد والمحللون حقيقة قوية وهي أن الصابي لم يتوسم الخلافة في الشريف الرضي وهو في العمر المناسب، بل في مرحلة مبكرة من العمر، هي بداية العقد الثاني من عمر الرضي وكان الصابي في أواخر الثمانين من عمره، بما في ذلك من دلالات، فخطبه حينذاك قائلاً:

أبا حسنٍ لي في الرجال فراسةٌ تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبّرني عنك أنك ماجدٌ سترقى من العلياء أبعد مرتقى

فوقيتك التعظيم قبل أوانه
وأضمرتُ منه لفظةً لم أبح بها
فإن عشتُ أو إن متُّ فاذكر بشارتي
وكن لي في الأولاد والأهل حافظاً

وقلتُ أطال الله للسيد بقا
إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقاً
وأوجبُ بها حقاً عليك محققاً
إذا ما أطمأنَّ الجنب في موضع النقا

وكان جواب الشريف الرضي:

وسننتُ لهذا الرمح غرباً مذلقاً
وسوِّمتُ ذا الطرف الجواد وإنما
فليس بساقٍ قبل ربعك مربعاً
وإن صدقتُ منه الليالي مخيلةً

وأجريتُ في ذا الهندواني رُونقا
شرعتُ له نهجاً فخبٌ وأعنقا
وليس براقٍ قبل جرِّك مرتقى
تكن بجديد الماء أول من سقى

إلى أن يقول:

فإن راشني دهري أكن لك بازيأ
أشاطرك العز الذي أستفيده
فتذهب بالشرط الذي كلُّه غنيً
وتأخذ منه ما أنام وما حلا

يسرُّك محصوراً ويرضيك مطلقاً
بصفقة راضٍ إن غنيت وأملقا
وأذهب بالشرط الذي كلُّه شقا
وأخذ منه ما أمرٌ وأرقا

... إلخ.

إن الحقيقة الماثلة في بشارة الصابي تشير إلى ما هو أبعد من حق الشريف الرضي، من حيث الجدارة والتأهيل للخلافة الإسلامية، أي أنها تشير إلى حق الشريف الرضي الموروث، والثابت، إضافة إلى الأهلية والجدارة.

بكلمة أخرى أن الصابي وهو شيخ الكتاب، والشاعر المعروف، كان يؤمن بحق اسرة الشريف الرضي، (أباً عن جد) في الخلافة، وإن هذا الإيمان

يمتد في حياة الصابي، وفي تاريخ علاقته بوالد الشريف الرضي، السيد الموسوي، بجذور قديمة.

فالبشارة لم تكن وليدة التفرس، كما يرى البعض، بل كانت وليدة الإيمان بالحق الموروث سواء أكان الرضي طفلاً (في عمره) أو مراهقاً، أو في ما بعد العقد الثاني من العمر.

إن تعليل البشارة بالإيمان بحق الشريف الرضي في الخلافة، حتى قبل أن يكون الرضي نفسه شخصاً مرموقاً، أكثر دقة من تعليل البشارة بالفراسة، وبخاصة من قبل شخص صابئي لا تشغله أمور الخلافة الإسلامية، كثيراً.

ويتصل ذلك بقضية أخرى ذات أهمية، وهي أن كرامات الأبرار من أهل البيت، كثيراً ما فعلت الأعاجيب في تغيير أفكار وعواطف اناس غير مسلمين، بعد الاحتكاك بهم، والإطلاع على صفاتهم الشريفة، فانتقلوا إلى حظيرة الإسلام بسبب التأثير بالقدوة الصالحة. وأصبح إنتهاؤهم الإسلامي ضرباً من الإيمان الكبير بإمامة الأئمة الأبرار والولاء لهم.

ومع أن الدكتور زكي مبارك يرجع بالعلاقة إلى بدايتها، وهي صداقة الصابي لأبي أحمد الموسوي والد الشريف، وقبل أن يولد الشريف بأكثر من أربع سنوات، إلا أنه لم يعرض العمق الروحي للعلاقة. فظهرت وكأنها صداقة قوية، أثرت على عواطف الشريف الرضي وتعززت أكثر بسبب اعتقال الصابي من قبل عضد الدولة، مثلما اعتقل والده من قبله أيضاً^(٧٣).

فالصداقة والمأساة المشتركة والرابطة الأدبية هي جملة العوامل التي وقف عندها د. زكي مبارك في تفسير الرابطة بين الصابي والرضي. إلا أن هذه العوامل ليست قوية التأثير إلى الدرجة التي يندفع فيها شيخ صابئي مهم الشخصية، حاد الموهبة، إلى الإنحياز التام إلى الشريف الرضي، والدعوة إلى حقه في الخلافة الإسلامية مع صعوبة هذه الدعوة بالنسبة إلى الصابئي في

وسط إسلامي يمور بالصراعات المذهبية .

وفي الحق، أن دعوة الصابي إلى خلافة الشريف كان يمكن أن تكون عبثاً على الرضي نفسه بسبب مكانته الخاصة بين المسلمين، وحساسية موقفه ودعوته إلى الخلافة، كما أنها كانت عبثاً على الصابي الذي كان يمكن أن يكتفي بإبداء الود والمحبة، دون المجاهرة بحق الشريف الرضي في الخلافة الإسلامية، ذلك الحق الذي كان يناصبه العدا، الخليفة والسلطة وأناس آخرون. غير أن الإيمان إلى درجة الولاء هو الذي قاد الصابي إلى المجاهرة، وهو الذي أفاض أعماق الشريف الرضي بالعرفان والحب الشديد لأبي اسحاق الصابئي، دون حذر أو تحسب.

وكانت قصيدة الشريف الرضي في رثاء أبي اسحاق الصابي من روائع المراثي المشحونة بالمغازي (*):

أرأيتَ كيف خبا ضياءَ النادي من وقعه متتابع الأزبادِ أنَّ الثرى يعلو على الأطوادِ أقذى العيون وقتاً في الأعضادِ إنَّ القلوب له من الامدادِ تلك الفجاج وظلُّ ذاك الهادي وعدت على ذاك الجواد عوادي أيدي المنون ملكت أيَّ قيادِ (٧٤) بقضائه ما كان بالمنقادِ (٧٥)	أعلمت من حملوا إلى الأعوادِ جبل هوى لو خرَّ في البحر أعتدى ما كنتُ أعلم قبل حطُّك في الثرى بعداً ليومك في الزمان فإنه لا ينفد الدمع الذي يبكي به كيف انمحي ذاك الجناب وعطلتُ طاحت بتلك المكرمات طوائحُ قالوا أطاع وقيد في شطن الردى من مصعب لو لم يقده إلهه
---	---

ويقول:

لمعان ذاك الكوكب الوقادِ متشابه الأجماد والأوغادِ	اعززُ عليَّ بأن يفارق ناظري اعززُ عليَّ بأن نزلت بمنزلِ
--	--

ويقول:

عمري لقد أغمدت منك مهنداً
قد كنتُ أهوى أن أشاطرك الردى
ولقد كبا طرف الرقاد بناظري
ثكلتك أرضٌ لم تلد لك ثانياً
إنَّ الدموع عليك غير بخيلةٍ
سوَدت ما بين الفضاء وناظري
رئى الخدود من المدامع شاهدُ
ما كنتُ أخشى أن تضنَّ بلفظةٍ
ماذا الذي منع الفنيق هديره
ماذا الذي حبس الجواد على المدى
ماذا الذي فجع الهمام بوثبةٍ
قل للنواب عددي أيامه
حمال ألوية العلاء بنجدةٍ
لقضى لسانك مذ ذوت ثمراته
وقضى جنانك مذ قضت وقداته
بقيتُ أعيجازُ يضلُّ تبعها
يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً
برد أنقلوب لمن تحبُّ بقاءه
ليس الفجائع بالذخائر مثلها
ويقول من لم يدرِ كنهك أنهم
هيهات أدرج بين برديك الردى
لا تطلبي يا نفس خلاً بعده
فقدتُ ملاءمة الشكول بفقده

في الترب كان ممزق الأغماد
لكن أراد الله غير مرادي
أسفاً عليك فلا لعاً لرقاد^(٧٦)
أنى ومثلك معوز الميلاذ
والقلب بالسيلوان غير جواد
وغسلت من عيني كل سوادي
أن القلوب من الغليل صواد
لتقوم بعدك في مقام الزاد
من بعد صولته على الأذواد^(٧٧)
من بعد سبقته إلى الأمام
وعدا على دمه وكان العادي
يغني عن التعديد بالتعداد
كالسيف يغني عن مناط نجاد
أن لا دوام لنصرة الأعواد
أن لا بقاء لقدح كل زناد
ومضت هواد للرجال هواد^(٧٨)
كم قنية جلبت أسي لفوادي
مما يجر حرارة الأكباد
بأماجد الأعيان والأفراد
نقصوا به عدداً من الأعداد
رجل الرجال وأوحد الأحاد
فلمثله أعياء على المرتاد
وبقيت بين تباين الأصداد

أبدأً ولا ماء الحيا ببراد^(٧٩)
 شرفي مناسبه ولا ميلادي
 فلأنت أعلقهم يداً بودادي
 شرف الجدود بسؤدد الأجداد^(٨٠)
 في باطن متغيّب أو باد
 حياً إذن ما كنت بالمزاد
 أبدأً وليس زماننا بمعاد^(٨١)
 وتركت أضيقتها عليّ بلادي
 ومن الدموع روائح وعود
 جسمي يسأل عليك في الأبراد
 بالذكر يصحب حاضراً أو بادي
 يتلو مناقب عوداً ويوادي
 باقٍ بكلّ خايلٍ ونجاد
 إنّ المنايا غاية الأبعاد
 مغرئاً بطيِّ محاسن الأجداد
 عبث البلى بأنامل الأجواد
 من رائح متعرّسٍ أو غاد^(٨٢)
 وقفت عليه مطالب الرواد

ما مطعم الدنيا بحلو بعده
 الفضل ناسب بيننا إن لم يكن
 إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي
 لو لم يكن عالي الأصول فقد وفي
 لا درّ درّي إن مطلتك ذمّةً
 إنّ الوفاء كما اقترحت فلو تكن
 ليس التنافث بيننا بمعاد
 ضاقت عليّ الأرض بعدك كلّها
 لك في الحشا قبرٌ وإن لم تأوه
 سلّوا من الأبراد جسمك وأنثى
 كم من طويل العمر بعد وفاته
 ما مات من جعل الزمان لسانه
 فأذهب كما ذهب الربيع واثره
 لا تبعدن وأين قربك بعدها
 صفح الثرى عن حرّ وجهك إنه
 وتماسكت تلك البنان فطالما
 وسقاك فضلك أنه أروى حياً
 جدت على أن لا نبات بأرضه

في هذه القصيدة يتفرد الشريف الرضي في طبيعته النجبية العالية، فهو يوجه أصدق الرثاء (وهو ما تطفح به القصيدة) إلى أبي اسحاق الصابي، رغم المكانة الإسلامية المرموقة للشاعر الرضي، والتي تجعله في موضع النقد واللوم، وبالأخص من قبل الغرماء والحاquدين وحاسدي الشريف الرضي على مكانه وسمعته.

ولم تكن الرثائية على هذا المستوى من التأسّي والتفطر أماً وحسرة، لو لم

تكن لأبي اسحاق في نفس الشاعر الرضي مكانة خاصة، هي مكانة المريد، والموالي، والمخلص، والداعية الذي لم تقعه ديانتته المعروف بها، وظروفه المحرجة عن الإفصاح عن دعوته والجهر بها، والعمل على إذاعتها.

وظل الشريف الرضي يذكر ولاء أبي اسحاق الصابي لاسرته وله، فظل يوافيه بالشعر الرثائي، كلما رأى قبره، معبراً بذلك عن أصالة الطبع، وعلو النفس التي كانت فؤارة بالأمال والأمان. وثمة ما يضاف إلى الأصالة والنجابة في طبيعة الشريف الرضي وهو يرثي أبا اسحق الصابي، وهو صفته القيادية غير الملموسة في رثائياته، ولكنها مستشفة من خلال رعايته لأشخاص معينين، لم يذكر أسماء بعضهم، وهي رعاية القائد للجندي، وتعاطفه معه، وحده عليه، وترحمه على ذكره.

وقد أصاب الصابي من رثاء الشريف الرضي من صدق الوجد ما يحمل أكثر من دلالة على قوة الآصرة، ومضمون الروحي والسياسي.

وبعد أعوام من موت الصابي، مرَّ الرضي على قبره، فقال:

أعلم قبرٌ بالجنينة أننا	أقمنا به نعي الندى والمعالي ^(٨٣)
مرزنا به فاستشرفتنا رسومه	كما استشرف الروض الطباء الجوازي
وما لاح ذاك الترب حتى تحلّبت	من الدمع أوشالُ ملأن الأماقيا ^(٨٤)
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا	نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا
ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق	عن الوجد إقلاعاً عذرنا البواكيا
أقول لركب راثحين تعرّجوا	أريكم به فرعاً من المجد ذاويا
ألموا عليه عاقرين فإننا	إذا لم نجد عقراً عقرونا القوافيا
ولو أنصفوا شقّوا عليه ضمائرأ	وجزوا رقاباً بالظبا لا نواصيا
وقفنا فأرخصنا الدموع وربما	تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيها القبر الذي ضمّ لحده	قضياً على هام النواثب ماضيا ^(٨٥)

هلاً على ضوء المطالع باقيا
نواضب ماء أم بواق كما هيا
لو آني إذا استعديته كان عاديا

هل ابن هلال منذ أودي كعهدنا
وتلك البنان المورقات من الندى
وما كنت آبي طول لبث بقبره

وأضاف:

وأصبح تعرفه النوائب واديا
ضمائنا أيامها واللياليا
ومن ذا الذي يغدو بما ساء راضيا
ولو أجد الأعوان أصبحت عاصيا
فألقي على ظهري وجر زماميا
لأن المرثي لا تسد المرازيا
عليك ولكنني أمني الأمانيا

خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه
أراحت علينا ثلة الوجد ترتعي
رضيت بحكم الدهر فيك ضرورة
وطاوعت من رام أنتزاعك من يدي
وطامت كيا يعبر الخطب جانبي
رثيتك كي أسلوبك فأزدت لوعة
وأعلم أن ليس البكاء بنافع

وترد المعاني الوافرة للحب والتقدير، وهي ترعى للصابي مجداً، لم يكن مقصوداً، لو لم يكن للصابي من أكثر الدعاة تحمساً لحق الشريف الرضي في الخلافة.

وبعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف الرضي على قبره

فقال:

حييت قبرك يا أبا اسحاق
قلق الضمير إليك بالأشواق
يحلو على متأملاً ومذاق
خطف الوميض بعارض مبراق
يوماً بغدر قلى وعذر فراق
بتنفس كتنفس العشاق

لولا يذمُّ الركب عندك موقفي
كيف أشتياقك مذ نأيت الى أخ
هل تذكر الزمن الأنيق وعيشنا
وليالي الصبوات وهي قصائر
لا بدُّ للقرناء أن يترايلوا
أمضي وتعطفي إليك نوازع

وأذود عن عيني الدموع ولو خلت
ولو أن في طرفي قذاة من ثرى
لجرت عليك بوابل غيداق
وأراك ما قذيتُها من ماقى
إن تمض فالجد المرجب خالد
أو تفن فالكلم العظام بواقى

الجذر القومي للإغتراب السياسي للشاعر الشريف الرضي :

إرتكز الإغتراب السياسي للشريف الرضي على أصل قومي للإغتراب، فهو من حيث الهوية القومية عربي الأصل والنشأة، وكذلك عربي النزعة والإتجاه، وهو ابن أرومة عربية قحة، حملت لواء المجد العربي. أي أن عروبة الشريف ليست انتفاءً قومياً تقليدياً، بل هو إنتهاء قومي ثوري، متجذّر في أرضية عربية متينة، وفي تاريخ عربي مجيد وعريق، حافل بالدروس التي تؤكد على البعث القومي، للتخلص من الجزر الحضاري، والهيمانات الأجنبية.

وبدت الغربة القومية ماثلة في تكالب الغزاة المعتدين من الفرس والترك على العراق وأقسام عديدة في المنطقة العربية، للإنتقام من العرب والثأر منهم، من جانب، وماثلة من الجانب الآخر في سرقة السلطة من أيدي العرب للتحكم بهم وتكريس السيطرة على رقابهم.

وقد جاب الشريف الرضي السلطة الأجنبية، مهما كان برقعها الأيديولوجي دينياً من الناحية الشكلية، مجابهة سياسية، وثقافية، وسلوكية، معطياً لموقفه القومي طابع التحدي، ومواصلة الصراع.

وهو في أغلب شعره الإفتخاري كان يبث أفكاره العربية، لا بصورة افتخار شخصي منعزل، وإنما في موقف موحد: فردي وقومي. فهو إذ يفتخر بنفسه وبأهله، فإنما يرمي بكل ثقله التاريخي لصالح أمته العربية، كما أنه في الوقت عينه يذكر مجد العشائر العربية ويطولاتها في معرض الإفتخار الذاتي.

فقصائد شعره التي تتضمن أفكاره العروبية، ونداءاته، واستطاداته التاريخية، وأمانيه العربية تربط الذاتي والقومي ربطاً محكماً، وطبيعياً تماماً.

فترد أشعاره عن شجاعة قبائل عربية بالقوة الإفتخارية نفسها التي يرد فيها ذكر شجاعته، وشجاعة قومه، أو بالإسترسال نفسه. وغالباً ما تنمو القصيدة وهي تنتقل من شجاعة الأهل والقوم إلى شجاعته الشخصية، أو بالعكس، لأن الرابطة بين الذات والأهل والعروبة، هي رابطة موحدة، تشكل ركيزة عضوية واحدة في حياة الشريف الرضي. ويأخذ الإفتخار، في هذا المنظور، قيمته الخاصة منزهاً عن تمجيد الذات المرضي، الذي وقع صرعى فيه، وبه، شعراء تياهون بأنفسهم عجباً، أصابهم مسٌ من جنون العظمة، فأطار صوابهم، وأضلَّهم، وأفقدهم القضية الجوهرية للإنتهاء إلى شعورهم وأوطانهم.

وتزداد أهمية إفتخارات الرضي الشخصية والعائلية والقومية، لأنها لا ترد في مناسبات تبادل إلقاء الشعر في النوادي والأسواق الأدبية، وفي فترات الترف وكسل الرفاه، وإنما وردت في زمن التحدي وبمواجهة السلطان الأجنبي الجائر.

إن الإلحاح على الفضائل القومية للعرب، رغم أن العرب في حالة القهر القومي، مغلوبون على أمرهم، هو سلوك ثوري يرقى إلى مستوى المبدأ.

وليس غريباً إن كان الشريف الرضي يتبجح بعروبته، وبشجاعة قومه، وجهاً لوجه أمام السلطان البويهبي. أو ليس هو القائل وهو فوق العاشرة من عمره بقليل:

المجد يعلم أن المجد من أربي ولو تماديت في غيٍّ وفي لعبِ
أني لمن معشر إن جُمعوا لعلِّي تفرَّقوا عن نبيٍّ أو وصيٍّ نبي

إذا هممتُ ففتشُ عن شِبا هَمَمِي تجذهُ في مُهجاتِ الأنجمِ الشُّهْبِ

فما الذي يصعبُ عليه أن يقولهُ بعدئذٍ؟!

إن روحَ التحدي التي ترعرعت في جسده، كانت تأخذ من حقه في المسؤولية قوةً متنامية، فكان شعره يزداد حماسةً وفخراً وشعوراً بالرياسة، فيقول وهو في العشرين تقريباً:

وعن قربٍ سيشغلني زماني برعي الناس عن رَعِي القُرومِ
وما لي من لقاء الموت بُدُّ فما لي لا أشدُّ له حزيمي

ويقول:

ما أنا للعلياء إن لم يكن من ولدي ما كان من والدي
ولا مشتٌ بي الخيل إن لم أطأ سرير هذا الأغلب الماجدِ

و«يلاحظ في البيت الأخير أنه يعرّض بالخليفة...» (٨٦).

غير أن أعظم ما في مسار التحدي، التذكير ببطولة العرب في معركة (ذي قار) التي انتصف فيها العرب لأنفسهم من الفرس، أمام الحاكم البويهي نفسه، وكان يروم في ذلك استفزاز الحاكم، وتحقيره.

ففي قصيدته الموجهة إلى الملك بهاء الدولة، (رغم أنها قيلت وهي في معرض مدح) جابهه بالذكرى التاريخية العريقة لمعركة (ذي قار)، ومن المؤكد أن ما كان الملك بهاء الدولة قد سمعه، وعدّه صلافةً ووقاحةً، أو أكبر من ذلك، كان في عرف الشريف الرضي مبدأً، وواجباً، وقضية.

إنّ الذكريات التاريخية تعيد حسابات الأذهان، وتعيد توزيع أوراق السياسة. فيرجع الحاكم إلى حجمه، حين يسمع صوت التاريخ، ويكبر المحكوم ويعلو اسمه من خلال الحكمة المنطوقة في أحداث التاريخ، تاريخه

القومي بالذات .

ويمكن أن يُتَخَيَّل كيف ارتعدت فرائص الملك وهو يسمع صوت الشاعر المجلجل، صوت السيد الشريف بشرفه، والرضي برضوان الله عليه، وهو يذكره بذِي قار، وفي التذكير تهديد، ووعيد، وثقة لا تقهر بالمستقبل العربي، رغم فداحة المذلة القومية في ظل العهد البويعي .

كان الشريف الرضي يطلق إنذار التاريخ الآتي، بواسطة صافرة الذكريات التاريخية، صافرة ذي قار التي كانت تعدل ألف بوق، فقال:

أذكرونا يوم ذي قار وقد أقبلوه عارض الطعن برد
رحض الأغلف في تياره ورد العلج وما كان يرد^(٨٧)
يصطلي نار طعانٍ مضة أوقدت فيها نزار بن معد^(٨٨)

وتظل المقابلة دائمة الحضور بين العرب المسلمين والفرس والكفار، بين معركة ذي قار والهيمنة البويعية، بين الإسلام والكفر، كلما ارتفع الحس السياسي في شعر الشريف الرضي، وتسرع حلقات السلسلة الواحدة للحس القومي العربي في إشهار نفسها تباعاً، حلقة، حلقة، بالترابط العضوي، الحتمي، الوثيق، الذي يحتل موقعه في صفوف الكلمات، وفي موسيقى التفعيلة، وجرسها، فما أن يرد ذكر معركة ذي قار، حتى يرد حديث الشاعر عن نفسه، وعن قومه، وعن قريش، وعن الخيل والطعان والحرب، وعن المطلب السامي الذي لا يخشى من أجل تحققه الهلاك .

ففي قصيدته - مثلاً -:

إلى كم لا تلين على العتاب وأنت أصمُّ عن ردِّ الجوابِ
حذار أن تغالبني غلاباً فلإني لا أدر على الغضابِ

يذكر معركة ذي قار، مذكراً بالقدرة العربية الغالبة، والتي وإن مرت

بأزمات صعبة إلا أنها ذات أساس تاريخي :

نذكركم بذي قارٍ طعاناً وما جرّ القنا يوم الكلابِ
فيستعرض - أيضاً - قريشاً، والصولة العربية، والعقاب العربي
الإسلامي القاسي :

عليها كلُّ أبلجٍ من قريشٍ	لبيقٍ بالطعان وبالضرابِ
يسير وأرضه جردُ المذاكي	وجوُّ سائِه ظلُّ العقابِ
وعندي للعدا لا بدُّ يومٍ	يذيقهم المسممَ من عقابي
فأنصبُ فوق هامهم قُدوري	وأمزج من دمائهم شرابي
وأركزُ في قلوبهم رماحي	وأضربُ في ديارهم قبابي
فإن أهلك فعدو جريءٍ	وإن أملك فقد أغنى طلابي

إن حقيقة العربي، في تصورات الشريف الرضي، عميقة المعنى، قوية الدلالة، وراسخة الحضور، مما يمكن الاستنتاج منه، وبسهولة تامة، أن تعامل الشاعر مع هذه الحقيقة، ليس مرحلياً أو مرهوناً بأزمات شخصية تتصل بالمطامح، وإنما هي ركن جوهرية في منظومة أفكاره، كما أنها موجّه ومنظم لسلوكه ولكثير من الأفعال التي أقدم عليها، أو كان في نيته الإقدام عليها.

وبالنسبة لكثير من الشعراء قد ترد النزعة العربية بصورة كلمات مفردة، أو أبيات شعر محدودة، لمناسبة معينة، لكنها عند الشريف الرضي ذات أولوية فكرية ومصيرية تكتسح كثيراً من الأحيان الإهتومات العاطفية الأخرى، لتظل سيدة الموقف في القصيدة.

ويقود التطابق مع القضية إلى إبداعية متقنة، تقوم على وحدة المعنى والمبنى. فالصدق الفكري والنفسي يؤدي إلى الصدق الفني، وكل صدق لأكثر

جدية يؤلّد صدقاً آخر، وهكذا تفتتح الطرق سلسلة الولادات الجديدة، والمتأخية.

وكيف يستطيع الشاعر (والفنان عموماً) دسبب العلاقة بين الموصوف والصفة، إذا لم يكن هو موصوفاً بصفة؟!

وبما لا يقبل الشك، إن التوصل إلى معرفة صفات الأشياء هو من ثمرات الواقعية، أي قدرة الرائي على استنتاج المرئي بمجموع أو ببعض صفاته.

غير أن الوصول إلى التشبيهات والإستعارات يدل على ما هو أبعد وأهم من الواقعية الإلتقاطية التي تأخذ بجماع المنظورات، وتعيد طرحها في الفن والأدب. ذلك لأن التشبيهات تنشق من الأصالة الحقيقية للشاعر والفنان. وعلى صعيد السياسة (في الشعر والأدب والفن) لا يتأق للسطحيين والإنتهازيين، والتوفيقين، وصيادي الفرص النفعية، أن يقدموا تشبيهات واستعارات رشيقة، أمينة، عذراء، باهرة الإختصار، والصياغة والتدليل. قد يقدرّون على تنميق أكاذيب معسولة، لكنهم هيهات، هيهات، أن يستطيعوا التشبيه والإستعارة بنقاوة إشعاعات الشمس الفجرية وهي تعانق الأرض التي أنعمت على الشمس بفضيلة الشروق والغروب، فمنح الناس الجمالين في الفجر والمساء للشمس ونسوا أن فدائية الأرض الدائرة وراء كل ذلك.

تتصل - إذن - نقاوة التشبيه والإستعارة، بنقاوة القائل وصفاء انتساباته إلى نفسه وإلى مجتمعه، وإلى قضيته.

هكذا يمكن أن نفهم بيت شعر واحد، يساوي أكثر من عشرات المقالات والأشعار، وحتى الدواوين. قاله الشريف الرضي وهو يجسد عروبه، والمضمون الذي يجب أن تكون عليه:

إذا عربيٌّ لم يكن مثل سيفه مضاءً على الأعداء أنكره الجدُّ

في هذا البيت تضمين أكبر من المطابقة بين العربي والسيف، وهو ليس اختراعاً، إنما هو من وحي الفطرة العجيبة، فطرة عربية الشريف الرضي المزكّاة بالعرفانية التاريخية والسياسية.

ثمة التصافات جميلة لو قلنا إن العربي كالسيف، وأجل منها لو قلنا إن السيف كالعربي، لكن قولة الشريف الرضي: «إذا عربيٌّ لم يكن مثل سيفه» خرجت عن نطاق البلاغة الشعرية، الوصفية، أو الاستعارية، خرجت من المعرفة المتدبرة، ودخلت في عظمة الفطرة النبيلة، التي هي المصدر الأول لكل معرفة منزهة.

لا يحس المتلقي إلا بالإحساس الواحد، وهو يقرأ أو يسمع إنشاد الشريف الرضي، أن العربي والسيف توأمان ولدا في اللحظة الواحدة، وبالصورة الواحدة، وبالأجل الواحد الذي لا مبدّل له.

فالعربي سيف، والسيف عربي، وهما منذ الأزل العربي كائن واحد، لا يصلح هذا بغير (ذا) ولا (ذا) بغير هذا. وان مجرد القول بـ (هذا) و(ذاك) يعني المباعدة التي لا تُقبل.

وإنها لحقيقة تاريخية مؤكدة أن العرب حينما (وكلما) نسوا وتناسوا معنى القوة في هذه المطابقة بين العربي وسيفه، كان السقوط مصيرهم المدهم.

ففترة الإزدهار العربي هي فترة تطبيق المقولة التي جلجل بها الشاعر الشريف ابن الشريف. أما فترات الإنحطاط، والإنهيار، فهي التي افترق فيها العربي عن سيفه، في تياه الغفلة.

أما: ماذا قالت القصيدة قبل أن تصل إلى حكمة البيت المذكور، فذلك ما يعنيه التدرج العزيز لمرقى الحب المفجوع الذي يتبدى بقوة حكمة

المطلع، فتأتي الأبيات المتلاحقة وكأنها مطالع وخواتيم زاهرة ومضربة حيثما توصلت مظنة العبقرية للشاعر الملهوف الذي وضعه (العز) بين الطرب والخذلان مثل زيت يخرق:

وأكثر هذا الناس ليس له عهد
فهل دافع عني نوائبها الحمداً
وليس خلقي من مداراتها بدأ
ويخدم فيها نفسه البطل الفرد
وكلُّ صديقٍ بين أضلعه حقد
وصال ولا يلهيه عن خله وعد
وأين العلى إن لم يساعدي الجد
وسابغة زغف وذو ميعه نهذاً^(٨٩)
أسار وحلاه عن الطلب القد
فللضارب الماضي بقائمه الحد
توددها يخفي وأضغانها تبدو
وتخدمه الأيام وهو لها عبد
ثناء ولا مال لمن لا له مجد
طواعن لا يعنيه النحاس والسعد
وإن ندبوا يوماً إلى غارة جدوا
يضاجعين فيها المهند والغمد
تطالعي فيها المغاوير والجرذ
وتلقى بي الأعداء أحصنة جرد
تروح إلى طعن القبائل أو تغدو
إذا ماجت الرمضاء واختلط الطرد
تهاوى على الظلماء والليل مسود

لأبي حبيب يحسن الرأي والود
أرى ذمي الأيام ما لا يضرها
وما هذه الدنيا لنا بمطبعة
تحورز المعالي والعييد لعاجز
أكلُّ غريب لي بعيد بوده
ولله قلب لا يبلى غليله
يكلّفني أن أطلب العز بالمنى
أحنُّ وما أهواه رمح وصارم
وليس فتى من عاق عن حمل سيفه
إذا كان لا يميضي الحسام بنفسه
وحولي من هذا الأنام عصابة
يسرُّ الفتى دهرٌ وقد كان ساءه
ولا مال إلا ما كسبتُ بنيله
وما العيش إلا أن تصاحب فتية
إذا طربوا يوماً إلى العز شمروا
وكم لي في يوم الثوية رقدة
ولو شاء رحمي سدّ كل ثنية
ألا ليت شعري هل تبغني المنى
جوادٌ وقد سدّ الغبار فروجها
خفاف على إثر الطريدة في الفلا
كأن نجوم الليل تحت سروجها

يعيد عليها الطعن كلُّ ابنِ همةٍ
يضارب حتى ما لصارمه قوى
تقرَّب لا مستحقباً غير قوته
ولا خائفاً إلا جريرة رمحه
إذا عربيٌّ لم يكن مثل سيفه
مضاء على الأعداء أنكره الجدُّ

ويأخذ التصعيد مداه في البيت الأخير، ويلحقه بصورة ثانية :

وما ضاف عنه كلُّ شرقيٍّ ومغربٍ
من الأرض إلا ضاق عن نفسه الجلدُ

لقد كان العرب يسيحون شرقاً وغرباً وهم يدرعون بالحق، يحملون راية الحق، ويشهرون سيوف الحق، فخطوا بأقلامهم، مع سيوفهم، رسوم الحضارة العربية المجيدة، وأبعادها.

ثم يبدأ ذكر الإحباط، وترتدُّ الصور الشعرية إلى الحزن الشخصي، والغربة التي لا تفارق:

إذا قلَّ مال المرء قلَّ صديقه
وأصبح يغضي الطرف عن كلِّ منظرٍ
وفارقه ذاك التحنُّن والودُّ
أنيق ويلهيه التغرب والبُعْدُ

فما لي وللأيام أرضي بجورها
تغاضي عيون الناس عني مهابةً
وتعلم أني لا جبانٌ ولا وغدُ
كما تتقي شمس الضحى الأعين الرمْدُ

إنها عربية المهابة إذن!

فائدة: (المال مادة الشهوات)

إن قضية الخلافة التي سيرت الشريف الرضي في دروب الإغتراب، والإحباطات القوية، تختلف - من حيث المطالبة بها أو الاعتقاد بالحق فيها - من راغب إلى طالب، ومن شخص إلى آخر. فهي قد تكون لدى البعض

نمطاً من شهوة السلطة التي تحرك المطالبة بها بقوة الدوافع والتطلعات السياسية الذاتية، وهي - في الغالب - تجمع عدة شهوات ورغبات تسلطية وتملكية متعددة، تكون بؤرتها الكبرى والأساسية شهرة السلطة، والرغبة بالإمارة، وترافقها شهوة تملك المال والثروات المادية بأنواعها لكي تخدم الأموال والأموال مشروع الإمارة، وتجسد الرغبات الذاتية السرطانية المتمثلة في الإحتياز والسيطرة وتملك الرقاب والأموال على حدّي سواء.

وبلا شك إن الموقف من المال يعكس إلى درجة كبيرة الطيبة السياسية والأخلاقية لدعاة السلطة، والإمارة. لأن فهم فائدة المال ومكانته وحدوده يكشف عن طبيعة الشخص ومواقفه، وآرائه، ونوع علاقاته بالبشر وبالحياة.

وبتعبير عام إن الأفكار التي تتعلق بالمال وسبل اقتنائه وزيادته، وسبل استخدامه وتوظيفه أصبحت تشكل منذ القدم نظرية محددة. لذلك حفلت الكتب المقدسة وأحاديث الأنبياء والمصلحين بمفاهيم وتحليلات وتعليمات عديدة حول المال.

والخلافة في فكر وتطلب الشريف الرضي، رغم تكتمه الشديد في موضوع المناذاة بها، ورغم أنها أخذت أسلوب (التورية) أكثر من الإفصاح، هي أقرب إلى الرسالة منها إلى رغبة الحكم، وذلك لأنها متجردة - إلى حد بعيد - من شهوة السلطة. ويدعم الرأي المذكور موقف الشريف الرضي من المال والمنافع المادية، وهو موقف تعلن عنه قصائده في العديد من المرات، مما يوحي بوجود رؤية محددة ثابتة للشريف الرضي في هذا الخصوص. وتتوحد مع الرؤية ممارسة تطبيقية تعلن عن تجرد الشريف الرضي من كثير من الشهوات التسلطية والتملكية، النابعة - حكماً - من أنانية مفرطة التضخم والعدوانية.

وتستلهم أفكار الشريف الرضي، الواردة في شعره، عن المال، الكثير

من أفكار (علي بن أبي طالب)، إن لم تكن كلها في هذا الميدان .

وتأخذ حكمة علي بن أبي طالب القائلة: «من ملك استأثر» مكانة مهمة في تشكيلة الآراء والحكم الأخرى، لأنها تربط ربطاً دقيقاً بين ضغط المال من أجل المراكمة وزيادة الثراء، وبين الإستئثار التملكي المتفاقم، الذي تتضخم فيه الأثرة، ويضيع الإيثار.

وما أراده (علي بن أبي طالب) في قوله: «فما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني» إيجاد رابطة عدل وشراكة في الحق، لأن المال مال الله والعيال عيال الله بالنتيجة، وكل ما ليس محموداً إذا لم يكن فيه حق للفقير والمحتاج والمحروم والسائل .

ولا يتوقف الشريف الرضي عن الإعلان بأن الفقير ليس عيباً، وإنما العار في المال غير المحمود.

فيقول:

ما الفقر عارٌ وإن كَشَفْتَ عورته وإنما العار مالٌ غير محمود

ويكرر الشريف الرضي قناعته بأن المال وُجد للسخاء والجود، وأن الشجاعة التي لا تعني غير الجود بالنفس ترتبط بصفة الجود بالمال، وبذلك يتحلى المرء بأحسن الصفات وأجملها.

وهو يقول:

لقد عاف أمواله من يجود وقد طَلَّقَ النفس من يشجعُ

وهو يدينُ الشخص الثري الذي لا يجود:

وجدوا وما جادوا ومحتقِبٌ لَلْؤم من أثرى ولم يُجِدِ

ويستوحى الشاعر من حكمة علي بن أبي طالب القائلة:

«لكل امرئ في ماله شريكان: الوارث والحوادث»، ما يتوصل به إلى إدانة جمع المال خارج الشرط الإنساني الصحيح، فالمال وسيلة وليس غاية، أو صنماً يسجد له الإنسان ويخدمه، وهو يرتبط بحق الإنسان في العمل، وبحريته، وبحق الرزق المكفول من الله تعالى لابن آدم، فيقول:

وما جمعي الأموال إلا غنيمةً لمن عاش بعدي وأتتهم لرازقي

وما يمنع الشرفاء والكرام من جمع المال إلا التعفف، والحق، فإذا جاءت الأموال بين أيديهم، فإنهم يخرجون سلطانها من أفئدتهم، ويجرون تصرفها بما فيه الخير والفائدة. وهم يعلمون خطر المال أكثر من سواهم، مهتدين بكلمة علي بن أبي طالب: «المال مادة الشهوات»، لكن سلطانه بعيد الشأو، وكما قال الرضي:

قد يبلغ الرجل الجبان بماله ما ليس يبلغه الشجاع المعدم
لا تخدعن عنه فربّ ضريّة ينبو الحسام بها ويمضي الدرهم

ولا تغيب عن الشاعر الحكمة التليدة:

إذا قلّ مالي قلّ صحبي وإن نما فلي من جميع الناس أهل ومرحّب

وخاتمة الأمر إن ذم المال لا يعني امتداح الفقر، فالفقر هو الموت الأكبر و«الفقر في الوطن غربة»^(٩٠).

وإنما يعني رفض توثين المال وحسابه غاية الغايات، فما هو إلا وسيلة، وأداة، تصلح إن وضعت في موضع خدمة الناس، وتفسد إن وضعت في موضع إذلال الناس، وخلق العداوات، وتأجيج الاحن والمحن.

الغربة الإجتماعية

غربة الناس أولاً

تحسب الغربة الإجتماعية وجهاً مباشراً من وجوه الإغتراب السياسي،

لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالظروف السياسية، وتقلبات الأحداث، ومصائر الأشخاص الفعالين في جهاز الدولة أو في صفوف المجتمع. وتسهم العوامل الموضوعية، والنفسية، في إبراز الجوانب الإجتماعية للظاهرة السياسية، والوجوه السياسية للظاهرة الإجتماعية.

وفي جميع الحالات المتغيرة، تكون الوضعيات والعلاقات الإجتماعية، من نتائج الأمر السياسي، ولكنها - في الوقت ذاته - تصبح من أسبابه، وعوامله المحركة، سلباً أو إيجاباً.

وتتعرض سيكولوجية الجماعات إلى تغييرات مهمة، تبعاً لنوع المراحل السياسية التي تجتازها، وكذلك، تبعاً لمدى جثوم التاريخ القريب على زمنها لمدة أطول أو أقصر. لأن اعتياد الجماعة البشرية على العيش في ظل مرحلة معينة لفترة طويلة، (بالقوة أو بإرادتها) يؤدي إلى تعوُّدها على صفات جماعية، أو شبه جماعية، قد لا تكون من خصائصها الثابتة، وإن كانت - بالنتيجة - تقرب منها.

وتختلف الجماعات البشرية فيما بينها من الناحية السيكولوجية، وكذلك تختلف الجماعة البشرية الواحدة في ما يسمّى بـ «السمات والخصائص» باختلاف مراحلها التاريخية، حيث لا توجد سمات وخصائص نهائية، وأبدية. وأن قانون (التفاعل) لا يسمح بوجود خصائص مطلقة. لكن بعض الخصائص النسبية تبدو وكأنها خصائص مطلقة من طول استمراريتها. ومن هنا يقال في بعض التحليلات السياسية والإنطباعات الثقافية عن بعض المجتمعات والشعوب إنها غافلة، أو كسولة، وعن بعضها الآخر إنها متمردة، وثابة.

في زمن البوهيين، استطاعت السلطة أن تمرر أساليبها الإنقسامية، التدميرية، بتشجيع الصراعات المذهبية لإمرار المخطط التصفوي. وذلك بإخضاع الصراع الطائفي لصالح الصراع القومي، لتحقيق السيادة التركية أو

الفارسية على الكيان العربي للمجتمع . إن المزيد من التناحر الداخلي الدامي بين طوائف ومجموعات عربية، ذات نسيج قومي واحد، كان يمهّد لتكريس السيطرة الأجنبية، والشعبوية، وكذلك كان يهيء لإحداث انكسار نفسي يطيح بعوامل الوحدة النفسية القومية .

و بمجرد أن تتصدع هذه الوحدة، فإن قوة الحاكم الباطشة قادرة على تركيع نسبة واسعة من (العوام)، إضافة إلى ذلك، فإن خداع الناس من حين إلى آخر باللين وبالهدايا تمشخ الحضور الفعلي للإرادة القومية، لذلك فإن قوى الإحتلال الأجنبي، الفارسي والتركي وسواها، ظلت تعبت بالتاريخ العربي كثيراً .

ويمكن تقدير غربة الشريف الرضي، الذي رفع شعاره السياسي (الخلافة العربية، المجد العربي، بعث ذي قار، الخ) في مقارعة السلطة البويهية، فقد كانت أكثرية العوام مخمدة، تابعة، ذليلة، تشتري بالعطايا الضئيلة، وتساق بعضا البطش .

فأول خذلان - إذن - فاجأ الشريف الرضي، هو خذلان العوام، الذين ورد ذكرهم في شعره بأسم (الناس). إنهم - أصلاً - مستلبون، وهم في حالتهم تلك غير قادرين على إعانة بطل قومي متقّم في كفاحه العادل . وتبلغ الغرابة مبلغاً مدهشاً، في سيكولوجية الجماعات، إنها - أي الجماعات - تندفع - أحياناً - بهوجائية عمياء ضد أبنائها ومفكرها وأبطالها، استجابة لأوامر سياسية صادرة عن السلطة الأجنبية، فتتكلم بهم، ثم تندم متأخراً .

يمكن أن نعثر على مثل هذا السلوك، في مراحل عديدة من أزمنة الإنحطاط في التاريخ العربي، بعد أن عفا الزمن على عصر الإزدهار العربي الإسلامي .

فأول غربة، واغتراب، بالمعنى الإجتماعي، عندما وجد الشريف

الرضي انعدام (الناصر) بالدلالة الإجتماعية، وكان ذلك يعني - في أقل تقدير - أن جماعة الناس التي لم تنصره، كانت تنصر العدو المباشر للعرب وهو السلطة البويهية.

من هنا، وربما أكثر من ذلك، كانت أعماقه تنزُّ بمראה الخذلان، وقصيدته العربية (التي أشرنا إليها سابقاً) والتي قال فيها: «إذا عربيُّ لم يكن مثل سيفه»، كانت على نقيض عادة الشعراء في اختيار مقدمة القصيدة (في النسيب، والتشبيب، وذكر الطلول، أو في مداخل أخرى)، بدأت بتقرير انعدام العهد في أكثرية الناس، منذ البيت الأول، وهو القائل:

لأيِّ حبيبٍ يحسن الرأي والودُّ وأكثر هذا الناس ليس له عهدٌ
ثم:

أكلُّ قريبٍ لي بعيدٌ بوَدِّه وكلُّ صديقٍ بين أضلعه حقدٌ
وتصعد عنده حدة التشخيص والإدانة، درجة عالية فيعلن:

الناس حولك غربانٌ على جيفٍ بله عن المجد إن طاروا وإن وقعوا
فما لنا فيهمُ إن أقبلوا طمَعُ ولا عليهم إذا ما أدبروا جزعُ
ويرى بنفسه أن الناس هم الداء، وأن الصراع بين العاقر والمعقور، صراع المفترس والفريسة، هو الذي يطغى على ما عداه، فيا لضبعة من يرنو إلى القضية: فقال:

يُطَيَّبُ النفس عن قطعي علائقها إنِّي أفارق من فارقتُ معذورا
كن في الأنام بلا عينٍ ولا أذنٍ أو لا فعش أبد الأيام مصدورا
غيب الرجال ظنونٌ قبل مبحثه فما طلابك أن تلقاه موفورا
فما نلائم إلا عاد منصدعاً ولا نشقُّفُ إلا عاد مآطورا
محل البلاد ولا جارٌ تغصُّ به يضيوي الفتى ويكون العام ممطورا

والناس أُسَدُ تحامي عن فرائسها
كم وحدة هي خيرٌ من مصاحبة
إمّا عقرت وإمّا كنت معقورا
ينسى الجميع ويغدو الفدُّ مذكورا
من كشف الناس لم يسلم له أحدٌ
الناس داءٌ فخلَّ الداء مستورا

ولقد كان ما ناله من الناس أسوأ جزاء، وهو الذي جُبل على حب
الناس، فهو في شجاعته، وكرمه، وكفاحه، وفي مسؤولياته التي تولاهها،
وصارع، وضحي فيها، لم يكن إلا منافحاً عن الناس.

وكان ذلك، من قبله، قضية ومسؤولية وواجباً، وليس مجرد عواطف
إيجابية بسيطة، لكن كم هم أولئك الذين يقرون بشجاعة الشجاع، وتضحية
المضحّي، وجود السخيّ، وهو يفعل ما يفعل من أجل الناس

لا شك إن العدد لضئيل، لأن غالبية الناس فيما إذا خيم عليها الجهل،
وغشت ضمايرها غشاوات الكذب والتدليس، وأجبتت عن قول الحق، فإنها
تسمي الشجاعة تهوراً، والكرم تذكيراً وسذاجة، والتضحية خبالاً.

ورغم أنها تعلم في قرارة النفس، ما هو الصحيح، إلا أن الجبن
الطاغي، الذي لا تعترف به (ومتى اعترف إنسان بجبنه؟! يسوغ لها اتهام
الغريب عنها، فتضيف إلى السهام والرماح التي تتناوشه رماحاً جديدة.
فيصبح أكلة السهام، وأكلة المغتاب. . . فالذي شكّا تبذل الشاعر صحابه،
والناس الذين أبعد الهوى من أجلهم، فقال:

أنا أكلة المغتاب إن لم أجنها
شعواء يحضرها العقاب الغائب (٩١)
وكأئما فيها الرماح أراقم
وكأئما فيها القسي عقارب (٩٢)
قد عزّ من ضنّت يدها بوجهه
إنّ الدليل من الرجال الطالب
إن كان فقر فالقريب مباعد
أو كان مالاً فالبعيد مقارب
وأرى الغني مطاعناً بثرائه
أعدائه والمال قرن غالب (٩٣)

يشكو تبذُّلي الصحابُ وعاذرُ أن ينبذ الماء المرتقُّ شاربُ (٩٤)
من أجل هذا الناس أبعدت الهوى ورضيتُ أن أبقى وما لي صاحبُ
وأَيُّ الليالي إن غدرن فإنَّه ما سنَّ أحبابٌ لنا وحبائبُ (٩٥)

غربة الأصدقاء ثانياً

ويرتفع مستوى الغربة الإجتماعية في نفس الشريف الرضي، إلى حالة اغترابية أكثر مأساوية، من تلك التي لفَّها به خذلان أكثر الناس، وهي خذلان الأصدقاء، وهي الحالة الثانية من الإغتراب الخائق الذي يسد أبواب التضامن الأخوي والروحي بوجهه.

إنَّ الصديق هو قوة المساندة في السراء والضراء، في الفرح والترح، وهو الحبيب الذي تشترك نبضات قلبه مع نبضات قلب صديقه، و«الغريب من لم يكن له حبيب» كما قال علي بن أبي طالب، وأناس مثل الشريف الرضي الذين يتسمون بالسخاء والسماحة وطهارة النفس، يجدون أصدقاء كثيراً، وهم يجمون الصداقة ويسهرون عليها، لكنهم سيئو الحظ، لأن أصدقاءهم (يضيِّعون) صداقتهم. وليس أكثر عذاباً للنفس الشريفة الحساسة من هجر الصديق، أو ابتعاده، أو نسيانه حق الصداقة، وحق الصداقة هو التلازم، والتذاكر بالمودة، والتشارك أمام تصاريف الزمان.

والإنسان مثل طيف عابر، وكذلك زمنه، فلا غنى له - والحالة هذه - عن معاضدة الصديق، الذي يحفظه في غيبته، ونكبته، ووفاته.

وحقُّ، ما قاله علي بن أبي طالب: «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان، وأعجز منه من ضيِّع من ظفر به منهم». لكن الشريف الرضي وهو (الأشجع)، كسب الإخوان، فخروره، وكم ضيِّع أناس خيرة الناس، وأفضل الصداقات لأسباب تافهة، لا يعدو بعضها الغرور، أو

لسماع القول والقييل، أو قبول مصاحبة أهل السوء، أو سوى ذلك، لكن الذين هجروا الشريف الرضي، كانوا يتهيبون من علو همته، وعظمة مسعاه، ولا يخلق مع الباز إلا الباز، فأشفقوا على أنفسهم من طول الرحلة، وأشفق عليهم الرضي أيضاً، لكنه ظل يشكو غدر الخلان والأصدقاء، وهذا أسوأ ما يناله امرؤ في حياته.

ويحار الإنسان في تفسير ظاهرة تعرض الشرفاء لغدر وخيانة الأصدقاء، هل هو سوء الحظ أم البلاء؟ وهو - كما ذكرنا - بدرجات، وبأشكال؟ وهل الشريف يغري الصديق بخيانتته، بسبب شرف طبعه، ونبل نفسيته، وترفعه عن العقاب؟ أم أن الحسد يحرك ذيله في نفس الصديق، الذي يُبرُّ بنفسه علو مكانة صديقه الشريف، فيغار، ويحقد، وينتقم؟

قد تكون الصورة هنا أكثر وضوحاً. فالصديق يرى صفات صاحبه النبيلة، مثلها في مرآة، يرى تفوقه، وجدارته، ونفاسة معدنه، وهو يرى نفسه - أيضاً -، يرى عجزه عن اللحاق بتلك السمات السامية، ولأن نوازع الشر موجودة في الصدر، فإنه بدلاً من أن يعتبر تلك السمات قدوة يهتدي بها، فإن نوازع الضحالة تحبط خبثتها، فتخلق الحسد والغيرة، والكراهية المتدرجة، ثم الإنتقام اللثيم.

وأبدياً، ظلت خيانات الأصدقاء مروعة، ومهينة وإنسان مثل الشريف الرضي يعرف الناس، ويعرف اختياراته جيداً، لأنه القائل:

تشفُّ خلال المرء لي قبل نطقه وقبل سؤالي عنه في القوم ما أسمُهُ

لا يمكن أن لا يعرف وجوه أصدقائه، وأكفهم، لكن هل يكفي ذلك لمعرفة ما وراء الدخائل؟ وأياً ما كانت معرفة الشريف الرضي بالأصدقاء والخلان، فإن غدرهم يجرحه جرحاً لا مثيل له، دائم النزف، لأن معرفته المخدولة تطرق أوتار نفسه الحساسة المهرفة، فيكون الأنين مثل صوت ريح

البادية: حزيناً، حزيناً، كروح مسمرة في النكبة!

هل كانت معادلة الشريف الرضي، معادلة الناس الذين هم مثله في صفاء الإحساس والذكاء النادر؟

ولعلّ سمات المحب العظيم، غير هذه السمات: الحب الخارق للأم، والحب العنيف للأصدقاء، وحب البشر، والحياة، والسمو بالنفس نحو المثل والمبادئ ونحو أخلاقيات الشرف؟ وهل هي غير الرهافة، والسخاء، والشجاعة، والموهبة، فلماذا، إذا تجمعت لدى امرئ تعرض لغدر الصديق، غدر الجبان، فينام الجبان على وسادة جنبه، ويظل هو شاكياً للزمان اغترابه؟

ويربط الشريف الرضي، كل شيء بالأصول، فإن أوضح ذلك، في شعره بالسيبية، فقد فعل، وإن أوضح ذلك بالتجاور فقد أوما، وقد قال:

وأول لؤم المرء لؤم أصوله وأول غدر المرء غدر خليل

فالله، الله، لمن توحّدت في نفسه أيكة الأصل الشريف، ومحبة الخللان!

ولله، ما يلقي من غدر من لؤمت أصوله، ومن يضع السم في كأس صاحبه وصديقه وخليله!

فطارت شكوى الرضي إلى الجوزاء، وإلى جميع محطات ذاكرة الزمن، فتشاكل الشجو والشجن والشكر في ناموس البلاء، والله الحي الشاهد:
أشكو النوائب ثم أشكر فعلها لعظيم ما ألقى من الخللان
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن إلا على حذرٍ من الإخوان

وكذلك قال عن معاناته من نفاق الأصحاب:

فكم صاحب تدمي عليّ بنانه
يضمُّ حشا البغضاء عند تعيبي
مسحت بحلمي ضغنه عن جَنانه
سبقتُ برمي قلبه فأصبتُه
ويظهر أن العزَّ لثمُّ بناني
ويجلو جبين الودِّ حين يراني
فلما أبى مسَّحته بسناني
ولو لم أصبُه عاجلاً لرماني

وقال:

لحا الله دهرأً خانني فيه أهله
فلمستُ أرى إلا عدوًّا مكاشفاً
وأحشمني حتى احتشمت الأعدايا
ولستُ أرى إلا صديقاً مداجيا

وفي وحشة الوحدة، وهو يجتاح الأرض بهمته ومجده وعلو شأنه، وآماله الكبيرة، يصدحه الخذلان فيرى نفسه وحيداً ليس له صديق، إذن ليس له منزل أو سكن! لكن: متى كانت لكبار النفوس مساكن؟

وظلَّ الشريف الرضي، شاعر القلب والحكمة، يحل ثنائية التفجع بين حاجته إلى الصديق، وبين حرمانه من وفاء الأصدقاء (إلا من قلة ناهين أجلاء) في شكوى الدهر والزمان، وكان يتساهل في فجائع وأزمات كثيرة، لكن انعدام وفاء الأصدقاء كان ينقله فوراً إلى مخاطبة الدهر الخائن، لأن الصداقة حلت في قلبه وعقله محلاً لا أعلى منه ولا أرقى، فإن قلَّ الصديق كان الدهر مسؤولاً عن ذلك:

توقَّعي أن يقال قد ظعنا
يا دارُ قلِّ الصديق فيك فما
ما لي مثل المذود عن أربي
ألين عن ذلَّةٍ ومثلي من
معطلاً بعد طول ملبثه
تلعب بين النائبات واغلةً
ما أنت لي منزلاً ولا سكنا
أحسُّ ودأً ولا أرى سكنا
ولي عرامٌ يجرُّني الرسنا
ولي المقادير جانباً خشنا
منازلاً قد عمَّرتها زمنا
كما تهزُّ الزعازع الغصنا

أيقظن مني مهتداً ذكراً
 كيف يهاب الحمام منصلتُ
 لم يلبث الشوب من توقُّعه
 أعطشه الدهر من مطالبه
 لي مهجةٌ لا أرى لها عوضاً
 وكيف ترجو البقاء نفس فتىً
 أكرُّ طرفي فلا أرى أحداً
 يُنبض لي من لسانه أبداً
 إلى المعالي وسائقاً أرنا
 مذ خاف غدر الزمان ما أمنا
 للأمر إلا وظنُّه كفنا
 فراح يستمطر القنا اللدنا
 غير بلوغ العلى ولا ثمنا
 ودأبها أن تضعضع البدنا
 إلا مغيضاً عليّ مضطغنا
 نصال ذمّ تمزق الجننا

إن الصراع يشتدُّ، وتضاف إلى أسبابه أسباب جديدة.

وسيرى الشريف الرضي نفسه شاردًا في البلاد دائماً، منكوراً، محروماً، جريحاً لأن حبل الوفاء، أتى ذهب وتوجه، يتصرم كاللعنة:

أأنكر والمجد عنوانيه
 ومخبري عند أقرانيه
 ويُعرف غيري بلا ميسمٍ
 مبین ولا غرّة ضاحيه
 ألا قاتل الله هذا الأنام
 وقاتل ظني وأماليه
 ودهراً يمؤل ذلّاته
 ولا يذخر العدم إلا ليه
 إذا ما تماثلت من غصبه
 أعاد المرار فسقانيه^(٩٦)
 فيا ليت حظي من ذا الزما
 ن ردّ نوابه الجاربه
 زمان عدا العي أبناءه
 فأفصح من ناطقٍ راغيه
 سؤالاً فهل يجبرن سالفُ
 من العيش قطع أقرانيه
 ألا أين ذاك الشباب الرطبه
 ب أم أين لي بيض أياميه
 مشى الدهريبي وبين النعيه
 م ظلماً وغير من حاله
 نظرت وويل أمها نظره
 ببضاء في عارضي باديه
 يقولون داعية للشباب
 فقلت ولكنّها ناعيه
 ألا قطع الناس حبل الوفاء
 وأولع بالغدر خلانيه

وصرتُ أعددُ في ذا الزمان	صديقيَ أولُ أعدائيه
أضرُّ الأنامَ لي الأقربون	وأعدى الوري لي جيرانه
إلى كم أُخفِّضُ من عزمي	وكم يأكل العصبُ أغماديه (٩٧)
فللهُ عزمي لو أنه	على قدرِ عزمي سلطانيه
ستسمع بي شاردًا في البلاد	لأمرٍ أُغَيِّرُ انسانيه
وقد أغتدي غرضَ النائبا	ت لا يتقي الروع إلا بيّه (٩٨)
نديمًا جذيمة لي في البلاد	نديمان والظلمة الداجية (٩٩)

ومما يزيد في تأثير غدر الأصدقاء والخلان على نفس الشريف الرضي مرارة، أنه شديد الלהفة على الصديق، فروح الصداقة تغزو دمه وأعصابه، وذهنه، وقلبه. وتبدو آثار قسوة الخيانة، أو الجفاء شديدة عليه إذا ما علمنا أنه يذكر عن نفسه أنه تحفة للصديق قائلاً:

على أنني تحفة للصديق	يروح بنجواي أو يغتدي
وإني ليأنس بي الزائرو	ن أنس النواظر بالأثمِدِ
تغمض لي أعين الحاسدي	ن كالشمس في ناظر الأرمِدِ
فلا دخل البعد ما بيننا	ولا فكٌ منا يداً عن يدِ
وطول أيامنا بالمقا	م في ظل عيشٍ رقيقِ ندي

لكن قدره أنه وهو الصديق والصادق ليس له صديق، فيقول:
كفني حزنًا أني صديقٌ وصادقٌ وما لي من بين الأنامِ صديقٌ
وكيف أريغ الأبعدين لخلَّةٍ وهذا قريبٌ غادرٌ وشقيقٌ

وظلت حسرته على الصديق تنتهي دوماً بمقالة حكيمة :

من لي بغرّة صاحب	لا يستطيل عليه عابٌ (١٠٠)
ما حار الأيام إلا	كان لي وله الغلابُ

هيهات أطلب ما يطو لُ به بَعادُ واقترابُ
قلَّ الصحابُ فإنْ ظفرُ تُتُ بنعمة كثر الصحابُ
من لي به سمحاً إذا صفرت من القوم الوطابُ (١٠١)
من لي به يا دهرُ وأل أيام كالحة غضابُ

غربة الأقرباء ثالثاً

وتحل مرتبة ثالثة للاغتراب الاجتماعي، فيتطوق الشريف الرضي تطويقاً مريراً، لا فرار منه إلا بالهرب الباكي، فمن غدر الصحاب إلى غدر الأقرباء، فكأن خسارة الزمن، وخذلان الناس، وغدر الأصدقاء، وسوء الحظ، ومرارة الدهر، لم تكتف بمطاردتها له، وهو الوحيد المتغرب، فكأن صوت المؤامرة السرية، التي تضافر فيها الجميع، يصرخ: امنعوا الضفة عن الغريب! وكانت له ضفة، وأية ضفة؟ الأهل والأقربون؟ فإذا هم تواصلوا مع البلوى كبلوى فادخرهم الزمان لتحميله فوق الأذى أذىً جديداً، فما هو فاعل إذن؟

وإنه ليتأسى لنفسه، وما نفع التأسى، وقد كان غدر الأقرباء مدعاة لأن لا يعجب من غدر الأصدقاء؟

وهذا ما قاله صريحاً:

تجاذبني يد الأيام نفسي ويوشك أن يكون لها الغلابُ
وتغدر بي الأقارب والأداني فلا عجبُ إذا غدر الصحابُ

وفي قصيدته التي كان مطلعها:

خصيمٌ من الأيام لي وشفيعُ كذا الدهر يعصي مرةً ويطيعُ

والتي يتحدث فيها عن الدهر بأبدع العبارات الشعرية التي تدور حول

فكرته المصطفاة في بيت الشعر:

عجبت له يسري بنا وهو واقفٌ ويأكل من أعمارنا ويجوعُ

في تلك القصيدة لم ينس أن يشير إلى خدعة وداد بعض الأقربين،
وكأنه ما كان يقصد (البعض) بل وأكثر وأكبر من البعض فقال:

وبعض مقال القائلين مكذَّبٌ وبعض وداد الأقربين خَدوعُ

ويتكرر الحديث في شعر الشريف الرضي كثيراً عن غدر الأقارب،
وعن خداع الود الذي يظهره إليه بعضهم، ولديه في ثقافته القرآنية، وفي
معلوماته أشياء كثيرة، أولها عندما قتل (قبايل) أخاه (هابيل)، وحتى النبي
الكريم خانة عمه «أبو لهب»، والشريف الرضي - نفسه - قال:

ما كلُّ نسل الفتى تزكو مغارسه قد يفجع العود بالأوراق والثمر

لكن رجفة التجربة الحزينة أكبر من المفاهيم والأفكار والمعلومات
والفجاعة الآتية منذ القدم، تستضيف إلى ركبها، كل يوم، مآسي تقطر دماً،
أو إحساساً أهول من الدم.

إذ تأبى حرب الخذلان ضد الشريف الرضي إلا أن تبلغ ذروة
التصعيد، فمثلما هو يتجوهر في حبه، وعشقه، وصدقاته، ووداده، فإن كل
معادة الدهر تظهر في أكثر تعبيراتها قساوة وحدة. فقد كتب عليه أن لا يلقي
بعض العنت، أو بعض الشقاء، أو بعض الإساءة، بل كل العنت، وكل
الشقاء، وكل الإساءة. لقد هجمت عليه رؤوس الإساءة، لا ذيولها. ومن
السم تجرع أصل مادته، لا مزيجه! فكانت المراتات تراكم، وتراكم،
وتصنع مدرجها الكئيب الذي يوصل إلى أشقى الشقاء.

وكان الذي بينه وبين أخيه (المرتضى) من جفاء، أو شك أن يدوي به،
لولا أن النفس تفتحت بالجراح، فما ضرها أن تستقبل أخطر جرح!

و«لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك الأخوين ولكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف، لأن مذهبهما في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف، ويمكن الحكم بأن الرضي كان جمهوره من أهل الأدب، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل العلم، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الأخوين، فالرضي الشاعر كان عالماً جليلاً، والمرتضى العالم كان شاعراً مجيداً، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بأن نحدد خصائص هذين الأخوين، ونبين ما يشتركان فيه، وما يتفرد به كل منهما تفرداً لا يتطرق إليه الخلاف، ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم، وهو أن ذينك الأخوين عرفا كدر الأخوة بعد الصفاء، وإن جهلت حقائق الأسباب، ولكن أي كدر؟ تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد، وامتزاج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء، تصوروا حاله وهو يسمع أن أخاه يمسه بقوارص الاغتياث».

و«قد شرب الرضي كؤوس العلقم من يد الزمان، رأى من البلايا ما أنطقه بالشعر وهو في العشر من سنه، ورماه بالشيب وهو في سن العشرين، ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا فيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه بلا تورع ولا استحياء؟ هل تفسد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى والرضي يتباغضان ويتحاقدان بعد أن جمعتهما الأيام تحت جناحي أم رؤوم تروضهما على المودة والعطف، وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زجَّ زوجها في غياهب الاعتقال؟» (١٠٢).

وها هي قصيدته الضادية التي يرد فيها على قده شقيقه الكبير المرتضى، والتي كان د. زكي مبارك يرى فيها أعظم ما نظم في قافية الضاد، وقد تأثر بها الضادية التي اختارها أبو تمام في الحماسة، فجاءت ضادته أبلغ وأروع (١٠٣):

رضيتُ من الأحباب دون الذي يُرضي
 وداينت من تقضى الديون ولا يقضي
 وقد أنهرت في الليالي جراحها
 مراراً وأنضاني من الهم ما ينضي^(١٠٤)
 طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحي
 وحلّ الصبا عقد الرحائل عن نقضي^(١٠٥)
 ولم يبق لي في الأعين النجل طربةً
 ولا أربُّ عند الشباب الذي يمضي
 ضحا اليوم عن ظلّ الشيببة مفرقي
 وأبدل مسودّ العذار بمبْيُضي^(١٠٦)
 أتاني ومطولٌ من النأي بيننا
 قوارص تنبوالجفون عن الغمض^(١٠٧)
 ومولّى ورى قلبي بلذعة ميسم
 من الكلم العوراء مضاً على مض^(١٠٨)
 فعذراً لأعدائي إذا كان أقربي
 يشدّب من عودي ويعرق من نحضي^(١٠٩)
 إذا ما رمى عِرضي القريبُ بسهمه
 عذرتُ بعيد القوم أمّا رمى عِرضي
 ألم بأنه أني تفرّدتُ بعده
 روابي للعلياء جاش لها نهضي
 وأني جعلت الأنف من كل حاسدٍ
 قبالي وخدّي كل مضطغنٍ أرضي^(١١٠)

وكم من مقامٍ دون مجدك قمته
على زلق بين النوائب أو دحضٍ
وقارعت من أعيالك قبل قراعه
فداجني بعد التشار والبغضِ
لقد أمست الأرحام منا على شفا
فأخلق بمشفي لا يعلل أن يقضي
رأيت مخيلات العقوق مليحةً
فلا تجعلن برق الأذى صادق الومض^(١١١)
ولا تشمتن من ودّ لو أننا معاً
شجيجان تطيننا الجنادل بالأرض^(١١٢)
إذا كنت اغضي والقواذع جمّةً
فمثلك أولى أن يرم وأن يغضي^(١١٣)

.... إلى آخر القصيدة.

ثم حدث الرضا بين المرتضى والرضي ف «لم تطل الجفوة فكتب المرتضى
إلى أخيه الرضي قصيدة جيدة » نتخير منها الأبيات التالية^(١١٤):

تكشّف ظلّ العتب عن غرّة العهدِ
وأعدى اقتراب الوصل منا على البعدِ
تجنّبني من لست عن بعض هجره
صفوحاً ولا في قسوة عنه بالجلدِ
نضته يد الاعتاب عمّاً سخطه
كما يتنضى العضبُ الجرار من الغميدِ
وكنت على ما جرّه الهجر ممسكاً
بحبل وفاء غير منفصم العقدِ

أمين نواحي السرِّ لم تسرِ غدره
 ببالي ولم أحفل بداهية الصدِّ
 تلين على مسِّ الإخاء مضاربي
 وإن كنتُ في الأقوام مستخشن الجدِّ
 ولما استمرَّ البين في عُدوائه
 تغوَّل عفوي أو ترقيى إلى جهدي
 أصاحب حسن الحظ والشكُّ مقبلُ
 بوجهي إلى حيث استمرت عرى الودِّ
 إذا اتَّسعت في خطة الصدِّ فكري
 تجلَّني همُّ يضيِّق به جلدي
 وإن ناكرتني خلَّة من خلاله
 تعرَّض قلبي يفتديها من الحقدِ
 إذا تركت يميني يديك تعلقني
 فياليت شعري من تمسَّك من بعدي
 إياباً فلم تشرف على غاية النوى
 ولم تنأ كلَّ النأي عن سنن القصدِ
 ولو لم يلاق الزند قدحاً بمثله
 لما انبعثت شهب الشرار من الزندِ
 هلُمَّ نعدِّ صفو الوداد كما بدا
 إعادة من لم يلف عن ذاك من بُدِّ
 ونغتنم الأيام فهي طوائش
 تواتي بلا قصدٍ وتأبى بلا عمدِ
 ومثلك أهدي أن يقاد إلى الهدى
 وأرشد أن ينحاز عن جهة الرشدي

غربة المتفرد

لا يمكن قصر الاغتراب على شروط الموضوعية، من حيث كونه تغيرياً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، إذ ان العوامل الذاتية للاغتراب تشكل اساساً قوياً لفعالية الثروة والمؤثرات الموضوعية. وبالنسبة إلى الشريف الرضي لعبت طبيعته الشخصية دوراً كبيراً في اغترابه المأساوي. واستناداً إلى أشعار الشاعر، وإلى المعروف عن حياته، فإن طبيعته تتسم بمزيتين واضحتين تماماً: الأولى قوة طبعه، وحديته التي لا يستطيع حياها الاقدام على أية مراوغة شخصية. ولعل وضوحه القاسي كان سبباً كبيراً لكثير من المتاعب التي مرَّ بها، وكثيراً تحدث عن السيف، بل هو يرى أن السيف لا معنى له، (وليس سيفاً) إذا ظل مغمداً، فهو سيف في وظيفة الاستعمال، وليس في اطار الغمد والحفظ فقال:

«أنا السيفُ إلا أنني في معاشر أرى كل سيف عندهم لا يُجربُ»

ومثلاً بدأ جلياً في العديد من الاستشهادات الشعرية المذكورة، وسواها مما لم نذكره - وهو اكثر! - كان الشاعر متجهاً صوب أهدافه التي اجملتها كلمة (المعالي) تعبيراً عن قضية سياسية وايدولوجية، وطموح متحصن بدلالة دينية وتاريخية.

وأكسبته طبيعته الشخصية العنيدة، واقعية مباشرة، وتعاملاً حسياً مع الاحداث بالمستوى الذي حتمه كفاحه من أجل تحقيق بعض أهدافه.

وإن (العلی) الذي كان يتوق إلى الوصول إليه باستمرار، لم يكن مقطوعاً عن تلك الطبيعة نفسها، لأنها بالذات، طبيعة تحمل في داخلها شعوراً بالعلو لم يفارقه لحظة. وانسان، هو الشريف الرضي، ذو نفس عالية، لا يمكن الا أن يكون صادقاً في حياته، حقيقياً، واضحاً، مباشراً، مفصلاً عن اهدافه، واغراضه، وعواطفه، بشاعرية صافية.

ومن موقع العلو النفسي، يأنف الشاعر وأي انسان مشابه له، من التدني، والتلوث، والارتباط بالشبهات ومن باب أولى، فإنه يترفع عن الكذب، والالتواء، والاحتيال، والتخابث، وسنرى - فيما بعد - كيف أن هذه الصفة من صفات الشريف الرضي متعلقة بخوض غمار حرب صعبة مع الناس والاقرباء والاصدقاء بسبب صدقه في عشقه، وتعففه عن النفاق، باسم دواعي نقابته وإمارته بالحج .

وإذا كانت صفة القوة الطاغية في طبيعة الشريف الرضي قد برزت في مضامين كثيرة من شعره، والشعر ترجمان الأفكار والأحوال، فإن الصفة الثانية برزت في حياته الواقعية، وفي شعره أيضاً، هي صفة الساحة، التي يمكن حسابها نوعاً من الديمقراطية الفطرية، والمناقبية الانسانية السمحاء . وهي - أيضاً - الوجه الآخر لعظمة الروح . فالقوة الحقيقية للشخصية هي التي توفر اوسع الامكانيات، والاستعدادات لخوض الحوار الديمقراطي، والتعايش مع المذاهب والافكار بثقة .

إن الضعفاء حينذاك، وفي أي وقت آخر، في ميدان السياسة والفكر هم الذين يخشون الحوار والتعايش مع الآخرين من مختلف المستويات المذهبية والايديولوجية، ذلك لان التزعزع الذي يلهم بنفس الضعيف فكراً و اخلاقياً يعجزه عن المعاشة، والمجاهبة المشروعة، ومقارعة الحججة بالحجة .

وعلى امتداد حقب التاريخ كان المتعصبون، المتطرفون اضعف الناس، لذلك فقد استخدموا النار والحديد للأجهاز على اجتهادات الفكر والسياسة ولم تكن ظاهرة قوة بعض رؤوس التعصب، التي لا يمكن انكار وجودها في مراحل تاريخية معينة وفي بلدان مختلفة، دالة على قوة حقيقية، بالمعنى الانساني، بل هي نوع من شذوذ القوة، أو القوة الشاذة .

وحينما تحاول ماكينة السياسة طوي السجلات والأوراق، وكما الافواه،

والتكتم على الأخبار والإختباء في ليل السرية، فإن قوة التاريخ تفتح كل ما طوته السياسة، وتسلط الضوء على مخفياتها وطلاسمها.

ولان السياسة (بنت) التاريخ، فإنها تسلم الاحكام النهائية إلى التاريخ الذي يقرر مدى الضعف والقوة، والكذب والصدق في حيوات البشر الفعالين، من سياسيين ومفكرين، وشعراء ومقاتلين.. الخ.

وقد انتصر التأريخ للقيم السمحاء، وادار ظهره للتعصب، وبذلك اصبح تاريخاً.

ويبدو أن الشريف الرضي ورث سماحة الاخلاق وديمقراطية الرأي ورفضه للتحجر والتعصب والانعزالية وتصنيف البشر باسم المعتقدات وسواها، من ابيه السيد ابي احمد الموسوي، الذي كان الرجل الهام، والرأس المقدم، في حل مشكلات الصراع الطائفي الذي كان يؤججه الاجانب الطامعون وعملاؤهم المنتفعون.

ان قدرة والد الشريف الرضي على تحقيق المصالحات بين الفرقاء المتناحرين، تناحر الفتنة المذهبية في سياق عشوائية التعصب وغوغائية المتعصبين، هي قدرة عالية بالتأكيد، وهي تعني ان شخصية ابي احمد الموسوي كانت مقبولة لدى جميع الفرقاء المتناحرين، فكانت لأرائه مؤثرة.

وبحكم مكانته وعلو منزلته بين المسلمين، وقدرته على ادارة دفة الاحداث في الوسط الاجتماعي، فإنه اصبح - في نظر السلطان البويهبي - مصدر خطر كبير على السلطة، وقوة منافسة لها، يحسب لها اكبر حساب.

فكان اعتقاله تعبير عن غلو السلطة البويهبية في الخشية من مكانته الدينية الاجتماعية الكبرى.

وقد تشرب الشريف الرضي من اخلاق ابيه كل السماحة النجبية التي

جعلته ينظر إلى البشر بمنظار المحبة، لا بمنظار التعصب الضيق، الذي يصطنع الفوارق بين البشر، بعنصرية مقبلة، ذات منحى مذهبي، ادعائي، شكلي بالنتيجة.

ولقد عاب على المسلمين الفتوية، والتناحر، والتمزق والضعف أمام الغزاة الاجانب الذين ارادوا تصفية حساباتهم التاريخية مع العرب، أمة الاسلام وحرزه الحريز.

وكان أن توجه بالنقد الميرير إلى قومه المتنازحين، المتنازعين، الذين فرقهم الطوائف بتشجيع من السلطة الاجنبية وخدمها، ومنفذي مخططاتها التصفوية، وكان نقده مدخلاً بدعوة إلى التمرد والثورة، فقال في قصيدة له:

إلى كم الرحم البلهاء شاكية	لها من النعي إعوأ وإرنان
حيرى يُضَلُّونها ما بيننا ولها	ونا على عدواء الداء نشوان
النَّجْرُ متفقٌ والرأي مختلف	فالدار واحدة والدين اديان
وثمَّ اوعية الاحسان مكفأة	فوارغٌ ووعاء الشر ملآن
إننا نُجرُّهم اعراضنا طمعاً	في أن يعودوا إلى البقيا كما كانوا
انِّي يتأه بكم في كل مظلمةٍ	وللرشاد اماراتٌ وعنوان
ميلوا إلى السلم أن السلم واسعةٌ	واستوضحوا الحق أن الحق عريان

ثم قال:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدةٌ	وربما ضر ابقاء واحسان
مالي أرى حوضكم تعفو نضائبه	وذودكم ليلة الاوراد ظمآن
مدفعين عن الأحواض من ضرع	ينضوا بهامكم ظلمٌ وعدوان
لا يُرهبُ المرء منكم عند حفظته	ولا يراقبُ يوماً وهو غضبان
إن الأولى لا يعز الجار بينهم	ولا تهان عواليهم لذلان
كم اصطبار على ضيمٍ ومنقصةٍ	وكم على الذل اقرارٌ واذعان

وفيكُم الحامل الهمهام مسرحهُ
والخيل مخطفةً الاوساط ضافرةً
الله الله أن يبتز امركم
ثوروا لها ولتُهن فيها نفوسكم

داجٍ ومن حَلَقِ الماذي ابدانُ
كأنهن على الاطواد ذؤبانُ
راعٍ رعيتهُ المعزيّ والضأنُ
إن المناقبَ للارواح اثمانُ

ولعب اساتذة الشريف الرضي دوراً كبيراً في تعزيز سماحة روحه، واصالة نظرتة الاصلاحية الانسانية، فهو لم يتلمذ على اساتذة من مدرسة مذهبية واحدة، بل كانوا من مذاهب وطرائف فكرية مختلفة، فخلق ذلك انسجاماً وافراً بين طبيعته الحرة وبين حرية الفكر التي كانت رائده ومناخه الذي ترعرع فيه .

وكان اشهر من اخذ عنهم الشريف الرضي هم (١١٥):

١ - ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ): وقد ذكره الرضي في كتابه (المجازات النبوية) وهو استاذة الأكبر في علم النحو، صَاحِبُهُ كثيراً، واعجب الرضي بآرائه، واعجب هو بشعر الرضي، فشرح بعض قصائده، ومدحه الرضي بقصيدة يشكره فيها ويصفه الانباري بأنه كان من حذاق اهل الأدب واعلمهم بعلم النحو والتصريف، فصنف في النحو والتصريف كتباً ابداع فيها كالمختصر والمنصف، وسر الصناعة وصنف كتاب في شرح القوافي وفي العروض، وفي المذكر والمؤنث .

٢ - ابو الحسن علي بن عيسى الربعي (ت ٤٢٠هـ): وهو استاذع في النحو قبل ابن جني، قرأ عليه مختصر الجرمي وقطعة من كتاب الايضاح لابي علي، والعروض للزجاج والقوافي للاخفش . . وذكر عنه القفطي انه صاحب (ابا علي) ودرس عليه وكان يقول له «لو سرت من الشرق إلى الغرب لم تجد انحنى منك» .

٣ - قاضي القضاة عبد الجبار بن احمد الشافعي المعتزلي

(ت ٤١٥هـ). ذكره الشريف في المجازات أيضاً. وقرأ عليه (تقريب الأصول) وكتاب (العمدة) في اصول الفقه.

٤ - أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٤٠٣هـ).

ذكره الشريف في المجازات ودرس عليه ابواباً في الفقه، ويُعدُّ شيخ الحنفية وفقههم.

٥ - أبو عبدالله بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ):

وكان أديباً فذاً وراويّة بارعاً. قرأ عليه الشريف الفقه والحديث. وكان يقال عنه في زمنه إنه احسن تصنيفاً من الجاحظ. وهو معتزلي صنف كتاباً في اخبار المعتزلة كبيراً.

٦ - ابو اسحاق ابراهيم بن احمد بن محمد الطبري (ت ٣٩٣هـ):

وكان فقيهاً مالكيّاً، ويعد شيخ القراءات. تتلمذ عليه الشريف في عنفوان شبابه وقرأ عليه القرآن.

٧ - الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ):

ابو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان قرأ عليه الشريف مع اخيه المترضى وقد انتهت إليه رئاسة الامامية في وقته، وكان مقدماً في العلم وصناعة الكلام والفقه، وله ما يقرب من مئتي مصنف.

٨ - ابو القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح

(ت ٣٩١هـ):

وهو شيخه في الحديث، ذكره في المجازات، وترجم له ابن الجوزي، ووصفه بأنه كان عارفاً بالمنطق والحديث، روى عنه الازهري والصيمري، وكان بالاضافة إلى ذلك شاعراً.

٩ - ابو حفص عمر بن ابراهيم الكناني (ت ٣٩٠هـ):

يروى عنه الحديث، وقد ذكره في المجازات، اثناء حديثه عن (الخمير أم الخبائث)، وهو الكناني (بنونين) كما ورد في المجازات لا (الكناني) بالتاء كما ورد في المنتظم والشذرات.

١٠ - ابو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨هـ):

الحسن بن عبدالله بن المرزبان، كان عالماً في الفقه واللغة والنحو والفرائض والعروض. تتلمذ عليه الشريف في التاسعة من عمره.

١١ - ابو علي الحسن بن احمد (ت ٣٧٧هـ):

وهو أحد أئمة العربية، اجازه في كتابه (الايضاح) وكان من تلامذته المشهورين عثمان بن جني، وعلي بن عيسى الشيرازي، وقد تقدم عند عضد الدولة الذي كان يقول: أنا غلام ابي علي النحوي في النحو، كما اقام بحلب عند سيف الدولة مدة، وجرت بينه وبين ابي الطيب المتنبّي مجالس.

١٢ - ابو محمد عبدالله بن محمد الاسدي الاكفاني (ت ٤٠٥هـ):

يذكره صاحب الغدير، وكان عالماً، ولي قضاء مدينة المنصور وباب الطاق، ثم جمع له قضاء بغداد.

١٣ - ابو محمد هارون بن موسى التلعكبري (ت ٣٨٥هـ):

ذكره الاميني في الغدير، ولن تسعفي مصادر في العثور عليه.

١٤ - سهل بن احمد بن عبدالله بن سهل الديباجي (ت ٣٨٥هـ):

روى عنه الشريف في المجازات، واغفله الاميني في موسوعته، وذكره محمد عبد الغني حسن في مقدمة تلخيص البيان، وأشار إلى أنه عثر على ترجمته في لسان الميزان.

إن انطواء شخصية الشريف الرضي على قوة الطبع ، وعلى السباحة ، اضفى عليها تفرداً متميزاً ، ومن خلال ذلك كان التفرد العقلي والأدبي والسياسي ينمو نمواً طبيعياً من تربة النفس الغنية بالانفعال الصادق . ففي ميزة قوة الطبع ترعرعت قوة الارادة ، والمطلبية السياسية ، والقدرة الكفاحية و فن قيادة الناس (سواء في نقابة الطالبين ، أو في مواسم الحج ، أو في النظر في المظالم) .

وفي ميزة السباحة ، نمت النزعة الديمقراطية ، وروح التعايش المذهبي واخذت ذهنية الشاعر المتفتحة مداها الوافر في المعرفة ، والحوار ، والابداع ، والانتاج الأدبي والعلمي ، اضافة إلى الشعر .

ومن وحدة المصدرين اللذين شكلا اساس النفس وتربتها ، تكونت للقريحة الشعرية بصمات قوية لا تخص احداً غير الشرف الرضي . كما أن العشق الذي كان رحلة طويلة في حياة الشاعر الرضي ، استقى من ذينك المصدرين العلامات المميزة في تجربته الخاصة فجانب السباحة ، وهو الجانب العاطفي ، والانساني كان يستقبل (الهوى) بسرعة ، فيما كان جانب قوة الطبع يجعله متشبهاً بالعلاقة العاطفية بقوة ، وهكذا كان ، الامر - وسيظل دوماً - يتبدى الحب بنظرة خاطفة ، أو بلمسة يد غير مقصودة ، أو بتبادل بضع كلمات في فرصة غير متوقعة ثم ينيخ بركابه على النفس اناخة المستقر الذي لا يريم .

وامتدت شجرة المعرفة في نفس الشريف الرضي بجذرين متوحدتين كضفيرة واحدة (قوة الطبع ، والسباحة) فكانت ثمار الشجرة منوعة في الشعر والأدب والعلم والسياسة ، لأن نبوغ الشاعر وجد في السيات المتفردة للشخصية امدادات قوية : عقلية وعاطفية .

أي أن اتحاد العقل والقلب في السفر الطويل للشريف الرضي كان قد

أوجد الإغتراب الكبير في وسط بشري اتخذ ازدواجية العقل والقلب مصطلحاً له، وإذا ما حصل أن توفر النموذج بشري يعطي للقلب حقه، مثلما يعطي للعقل صلاحيته، فإن ذاك النموذج - في احسن الأحوال - يعطي للقلب بعض حقه، وللعقل بعض صلاحيته لكننا الشريف الرضي فتح بوابات الجسد امام الشهقة التامة للقلب، وامام طلاقات العقل التي لم تنقطع.

لقد رفع الحجاب بين العقل والقلب، في داخل نفسه، فكانت لهما رياضة مشتركة، ورفع الحجاب خارج نفسه، أمام الناس، فكان للقلب والعقل مهرجان كبير لم يشترك فيه أحد سواه هو! اليس هو واحداً متكثرًا بما حباه الله به من موهبة ونبوغ ومؤهلات؟ ورغم تناقض السمات عند سواه، فإنها تضابقت فيه، فكانت فيه خيالية الشاعر، وواقعية السياسي، وموسوعية العقلاني وجدية العالم ورقة العاشق، وعناد المغامر.

وكان فيه طبع الرئاسة، ونزعة الجواب، وهكذا ولد في الشريف الرضي النموذج العالم إلى جانب النموذج الشاعر، وكانت مؤلفاته العلمية في الأدب والنحو والفقه لا تقل شهرة عن شاعريته الرفيعة.

إن العلم وهو يتعامل مع الوقائع ومع التواريخ، ومع خلاصة الخبرات البشرية، يتطلب نقيض ما يتطلبه الشعر فحيث يعني الشعر الهجرة وراء الخيال والرؤيا، فإن العلم يعني المكوث نداءً لمختبر، وفي دائرة البحث والمواصلة، والتسجيل، والجرد، وتثبيت الحقائق.

إن الحقيقة العلمية، وهي غير الحقيقة الشعرية تحتاج إلى مجهود بشري مكرس لها، في انقطاع العالم ومكوته في ميدان العمل العلمي، فكيف استطاع الشاعر الحر الشريف الرضي أن يفي بمستلزمات الحقيقة العلمية، وهو بطبيعته الشاعرية، الغرامية، المتجولة؟

إن جواب ذلك وارد في فرادة طبعه وطبيعته، فكان العالم الوجه الثاني

لشخصية الشريف الرضي الشاعر المجيد، فاستطاع أن يكون مبرزاً في ميادين العلوم اللغوية والشرعية، وفي الدراسات الأدبية، فصدرت له مؤلفات ثمينة من بينها: «المجازات النبوية» و«حقائق التأويل» و«أخبار قضاة بغداد» و«انتخاب الحسن من شعر الحسن» و«انتخاب شعر ابن الحجاج» و«تعليق خلاف الفقهاء» و«طيف الخيال» و«المتشابه في القرآن» و«مجاز القرآن» و«خصائص الأمة» و«انشرح الصدر في مختارات من الشعر» و«انشرح الصدور» و«سيرة الوالد الطاهر» و«مختصر امثال الشريف الرضي» وقدم المختارات من عبقرية علي بن أبي طالب ممثلة في الكتاب النادر: «نهج البلاغة» إضافة إلى العديد من المؤلفات والرسائل التي تفصح، ايما افصاح، عن توقد الذهن، وغنى التجربة، واتساع الأفق عند الشريف الرضي.

وكان الجانب العلمي - الدراسي - من حياة الشريف الرضي مناسباً لمكانته الدينية، ومسؤوليته في امانة الحج، بعكسه الشعر الذي كان يثير حفيظة الخصوم، ويؤلم المريدين الذين راهنوا على السياسة فقط.

لكن الشخصية الفذة، شخصية الشريف الرضي، سارت مشتملة بكل جوانب الإبداع في الشعر وفي علوم الأدب والفقہ والشرع، مثلما سارت مشتملة برداء الرئاسة الذي اكتساه بفضل تأريخه العربي الأشم وامكاناته النادرة، وعلو محته.

غير أن ما من ضرورة تجعل تفرد شخصية الشريف الرضي نوعاً من التغرب المثير لولا الجانب المهم في حياته، فقد شاءت الدنيا، دنياه، ودنيا منطقتة العربية ودائرتة الإجتماعية، أن يكون أميراً في العشق، مثلما هو أمير في موسم الحج، وفي السياسة.

وكثيرة هي الفعاليات النظرية التي قد لا ترتبط بفعاليات عملية، لأنها مجرد افكار وتصورات، وأخيلة، وقد يتخيل الإنسان ما شاء له الخيال، في

الشعر، وفي السياسة لكن العشق هو واقع كالحيال، صلة بين عاشقٍ ومعشوق ضمن مناخ اجتماعي، وطبيعي. فهي حسية رغم كل جوانبها اللاحسية، وهي مفضوحة، رغم كل السرية، وهي ابدية رغم (الأنثية).

ولم يوجد - قط - عاشق بدون معشوق. فكيف إذا كان العاشق واسع التجربة ما اسرع ما كان قلبه يتعرض للطرق؟!

هناك في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، في اجواء التعصب والفتن والصراعات الدامية، هناك في زمن المكاييد والدسائس والشغب العنيف، كان شخصٌ يتحلى بكل إمارات النبيل والشرف والورع، وبكل مخايل النبوغ في الشعر والأدب والعلم، شخص مشبع بالطموح، وهو سيد قومه واهله، يدخل عصره و بانتظاره المريدون الذين يريدون ممتشقا سيفه فقط، إلا أنه يتقحم العصر بابتسامة القلب، عاشقا كبيرا، ظل في الحب غلاما تتقصاه الجميلات.

كان للشريف الرضي مذهب في العشق، وفي أنشطة سياسية وفكرية كثيرة تتوفر امكانية صياغة المذهب، أما في العشق، فإن صياغة مذهب للعشق عمل مذهل.

وقد توصل الشريف الرضي إلى رسم مذهب في العشق من خلال تجربته الواقعية المثيرة. ويبدو أن ثراء شخصيته كان يدفع به في كل اهتمام إلى اقصاه ففي الشعر يصبح اشعر قريش ومن اشهر شعراء العرب، وفي السياسة يصبح نائب الخليفة، أمير الحج، نقيب الطالبين، وفي الأدب والفقه والنحو يصبح عالما لا يشق له غبار، ثم في العشق يصبح أمير العشاق، ومعجم العشق.

لقد برز عمر بن أبي ربيعة في الغرام فكان شعره ديوان حياته وغرامياته إلا أنه لم يطرح مذهباً، لأنه كان يتبع إحساساته اللذنية، وبرز الشعراء

العرب الذين اعطى كل واحد منهم قلبه لفاتنة واحدة، (قيس لليلى، وجميل لبثينة، وكثير لعزة، . . . إلخ) فابدعوا واجادوا، لكنهم أعطوا طرازاً من الحب، رائعاً، ومتميزاً، إنما لم يصل إلى مستوى المذهب في العشق .

كان الشريف الرضي لوحده تجربة متكاملة، فقد اندفع في العشق إلى النقطة البعيدة، إلى حبة القلب، وما بعدها! فأى واحد ذلك الذي استطاع أن يصل إلى حبة قلبه؛ (ومن الحبة، حبة القلب، جاء الحب!) فيناغيها، ويشاورها، ويستجيب لهفتتها! وأي واحد ذلك الذي يستطيع الوصول إلى حبة قلب محبوبه، فيقدم لها صلاة الروح، واذعان الولاء، ومناجاة التدليل، وواجب الحراسة العشق هو جسر الغيب ما بين حبات القلوب المتألفة .

وفي ملكوت العشق، كان الشريف الرضي عذرياً في عالم الرغبة، وراغباً في عالم العذراوية، ومزيجاً رائعاً من الزهد، والرغبة، مع كائنات بشرية جميلة، مترعة بفيض الجمال، المظل من العيون والحدود، والشفاه، وفي مواسم الحج، التي يحضرها أميراً وشهيراً كان كل شيء يلتمع بسرعة، مثل برق. عين البدوية التي تومض إيماضة الدنف، وخدها الذي يتضرج بحمرة الاشتهاة الخجول، وينشق الهوى من صندوق الجسم كزلزال، لا يتجاوز عمره عمر موسم الحج، ثم ينقضي كل شيء، وكأن نبضة القلب التي يتعلق بها مصير حياة بأكملها، ليست إلا نغمة، حائرة، تائهة، غريبة، سرعان ما يرميها اعصار الكون في وديان العدم .

كان الشعراء العشاق يطاردون نساءهم الفاتنات، والشعر فضيحة . وحتى لو لم تكن للشاعر قصة غرامية، فإنه يتناول قصة الآخر محيلاً إياها في شعره إلى موضوع، وتجربة، فكيف إذا كان الشاعر يكتبون بنار الحب إنه يستصرخ الزمان، ويستنطق الموق، ويشهد الأحياء والأموات والأشياء والكثبان والجداول والاباعر على فرحه أو على حزنه .

ولقد شهدت جزيرة العرب عشرات الشعراء، الذين كانوا في الغرام مثل «دون جوان» و«كازانوف» لكن امارة العشق ظلت معقودة من نواصيها، إلى الشريف الرضي.

ففي صلب طبعه كان جمالياً كبيراً. يقتنص سرحات الإشراق الفاتن على الوجوه، لأنه كان يراها بعين القلب التي لا تخطيء. فكان غير محتاج إلى مقاييس الإحساس، لادراك جمال الجميل، لأن الوتر واحد بين (الناظر) و(المنظور)، فرنةً (هنا) تنشئ إفتها النغمية (هناك)!

الشعور بالجمال كان لدى الشريف الرضي أكبر من شعور الشعراء الآخرين، الذين وصلوا إلى الحب من خلال جذبات الإحساس. لقد عشقوا من خلال تأثير العيون الحوراء، والحواجب الزجاء، والشفاه اللمياء، والأعناق المسبوكة، والصدور الناهدة، وغير ذلك مما نظقت بهم قصائد الغزل، أي أنهم عشقوا الحسي، والجزئي، ثم استوطنوا الحسي والجزئي أيضاً، وعجزوا- بسبب الطبيعة البشرية والثقافية، طبيعتهم- عن رفع الحسي إلى مستوى الأبدى، والجزئي إلى مستوى الكلي، فجاءت قصائد الغزل متشابهة إلا من فروق بسيطة، فهذا شاعر يحب امرأة سمراء، وذاك يحب امرأة شقراء. هذا يحب امرأة قصيرة، وذاك يحب امرأة طويلة، واخضعوا تسمية (القلب) إن جاءت في اشعارهم، إلى سيطرة الرغبة ونداء اللذة، فكان القلب بريد الشهوة، أو قناعها المحترم الذي تستخدمه للتضليل، والتخلص من الفضائح ولتعفيف الشعر من الإستخدامات العضوية الأخرى المخرجة. غير ذلك، تماماً، كان الشريف الرضي، لأن مفاهيمه عن الجمال كانت من معطيات نفسه الشريفة، المتسامية. فهو في علاقته بالناس، وبالطبيعة، كان يتصل بالاعماق المشتركة، مبرهنأ بتجربته الحياتية. إنه والناس والطبيعة من عمق واجد وينبوع واحد.

وحين كان الناس لا يرون إلا الظواهر الخارجية، كان هو مدركاً أن في

داخله تضطرم دفعات الينابيع الجوفية للطبيعة والكون، فكان يصغي إليها أتم اصغاء، وكانت هي التي تهديه، وتقوده، وتجعله صادق مع نفسه ومع سواه، فالذي يدرك حركة الاعماق في الكون الهائل ويصيح سمعاً لإيقاعها المستضاف في جسده، هو- وحده- الذي لا تغره المظاهر وهو وحده الذي تتفتح عينه متعرفة على المدى الأكبر، فيعود يرى ما لا يراه الآخرون، ويتبدىء بالكلي مترحلاً من خلاله إلى ملاحظة الجزئي، فالعين، عين المرأة الفاتنة، أو عين الغزال، ليست جميلة بذاتها، بل هي جميلة في علاقتها بـ (كلية) الطيف الشمسي للجمال.

فالشعور بالجمال، هو تصور بالكلية، والأبدية الجمالية، هو انتساب إلى جلال الكون المتوحد في الجمالات التي يهرع إليها المتوهلون، هرع العطشان إلى الماء الزلال.

وفي كل عشق تمثل العين مركز التأثير الذي يسرع بإرسال برقيته إلى القلب، ولم يفك المفكرين والشعراء تشبيه العين بالشمس، في تأثيرها على الأحياء، فيما تعطي وفيما تميت، وكذلك في شكلها.

وكما سترى، فإن الشريف الرضي اعطى للعين رسالة كونية، لأن العيون المقدسة هي التي تزيح الحجب السمكية، فترى ما ليس يرى، وتقرب ما هو متباعد وتدمج ما هو متعارض، وتلغي اضطراب الأشكال الخارجية في فنية وجمالية النسق.

إن (كلية) الجمال وكلية الجلال، وكلية الحق، وكلية العدل والخير، هي شرط العشق الصحيح، والوله الذي تقضي الأيام ولا ينقضي.

والشاعر الجمالي، وأي جمالي آخر، شاعراً كان أو غير شاعر، يحمل في داخله معزوفات الكون الجميلة التي يستدل بها على كل جميل. ومن ذلك (العلو) الذي تتوحد فيه كليات الجمال والجلال والخير، يعاين النظر كل

ما هو جميل فيفرد له مكانة الخصوص. وفي وحدة الأفق الجمالي الكوني تتضايق وتتجاوز الأشياء الجميلة مثلما تتضايق وتتعايش وتتكامل موجيات وامواج البحر في الإيقاع الأزلي لها في الصخب وفي الهدوء.

لقد أتاحت الرؤية الجمالية الشمولية للشاعر الشريف الرضي استيعاب الجميل بدلالات الجلال خلافاً لما حصل لدى الشعراء الغزليين، الحسين الذين اطنبوا في ذكر المفاتن الجسدية.

إن عين الشريف الرضي، هي عين الجمال التي رأت بروح الجلال، لذلك ما كان له كبير مغنم في الأوصاف الحسية المباشرة، وحسبه أنه كان عفيفاً قوي المروءة.

وهو القائل:

«ويمعني العفاف كأن بيني وبين مآربي منه هضابا»

والقائل أيضاً:

«أرى برد العفاف اغضُّ حسناً على رجل من البُرد القشيب»

ومذهب الشريف الرضي في العشق، يرقى بتغرد السمات الشخصية له إلى مستوى غربة واغتراب المحبين الكبار، الذين عصفت بحيواتهم تهيدة الشوق في كونية سريعة التبديل لاجزائها المعطوبة، أو المقطوعة، أو التي حان أو يحين أجلها.

اغتراب الحب

إن الرؤية الشمولية للشريف الرضي في الحب والجمال هي لسان حاله، وصفته المائلة في طبيعته، وطبعه.

ولمعرفة خصوصية تجربة الشريف الرضي في العشق، ينبغي إحالة

العشق إلى الحب وهو الدائرة الكبرى للقلب .

وسبب الإقرار بشمولية الحب على العشق، فذلك لأن العشق مرتبة من مراتب الحب، التي أولها الهوى، ثم العلاقة، ثم الكلف، ثم العشق، ثم الشغف، ثم التتيم، ثم الشوق^(١٦) .

وإذا كانت تلك هي مراتب الحب ودرجته، فإن الحب يتسع ويتنوع بعدة أنواع، فهناك حب الأهل، وحب الأصدقاء، وحب المرأة، وحب الأشياء، وحب الطبيعة، وهناك الحب الروحي، الخ . .

وأحسن عشق العاشقين إذا كانوا محبين، تطهرت نفوسهم من البغضاء، وتسامت بالحنان والمودة والحب .

ويظهر في مجمل شعر الشريف الرضي أنه محب كبير يخفق قلبه بحب الأهل والأصدقاء والناس والأماكن، أي أن حبه للمرأة كان من نور جنس مشع بالحب، ممتلئ بالعاطفة . والبشر في طبائعهم، يتباينون، فبعضهم خلق ألوفاً، محباً، والبعض الآخر خلق مبغضاً، لئيماً، والبعض الثالث موزع بين الإثنين يحب حيناً، ويبغض حيناً، تسوقه دواعي المصلحة والرغبة فلا يستجيب لغيرها . أي أن عقله وقلبه يخدمان تيار غريزته غير المشدبة .

وكانت نفس الشريف الرضي المتطهرة بالشرف والإستقامة والسخاء، قد ألفت الحب، فلا عجب إن كان ذلك عاملاً مهماً من عوامل غربته، بل في المقدمة منها . ولا بد من الإشارة إلى عام تغريبي كبير، كان له أثره البالغ في نفس الشاعر الحساسة، وتجربته في الحب، ذلك هو وفاة الأم .

فكما كانت نكبة الشاعر بسجن والده نكبة الحب الأولى، فإن نكبته الكبرى حلت بموت أمه كانت بعد سجن أبيه التعويض العاطفي الكبير له .

لقد اهترت أركان حياته اهتزازاً عنيفاً، حين فقد محبوبته المقدسة أمه

(فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الأصم) التي أسبغت عليه نعم الحب، والرعاية، والحماية، فكانت له خيمة، وسنداً، وأي سند!

فكانت أول غربة هي غربة فقدانه لها، وقبل ذلك قال جده (زين العابدين): «فقد الأحبة غربة»!

وتبوح قصائد الرثاء - عادة - بتلك الغربة بوحاً بعيداً، عند موت الأم خاصة، فكانت قصيدة (المتنبي) في رثاء جدته التي أحبها حباً شديداً، لأنها كانت له أمّاً وأباً، تفجيعاً كبيراً، فصاح طعناً، وهو يحن إلى الكأس التي شربت بها، ويهوى لمثواها التراب:

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذمّاً
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى
لك الله من مفعوعة بحبيها
أحنُّ إلى الكأس التي شربت بها
فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حلماً
يعود كما أبدي ويكري كما أرمى
قتيلة شوقٍ غير ملحقها وصماً
وأهوى لمثواها التراب وما ضمّاً
ويقول:

وما أنسدت الدنيا عليّ لضيقها
فوا أسفاً أن لا أكبّ مقبلاً
ولكنّ طرفاً لا أراك به أعمى
لرأسك والصدر اللذين ملئا حزماً

كذلك كانت رثائية أبي العلاء (المعري) حينما دهمته مصيبة أمه، في سنة ٤٠٠ هـ وكان في السابعة والثلاثين من عمره:

دعا الله أمّاً ليت أني أمامها
مضت وكأني مرّضعٌ وقد آرتقتُ
دُعيتُ ولو أن الهواجرَ آصالُ
بي السنُّ حتى أشكل الفودَ أشكالُ
وقال أيضاً:

مضتُ وقد آكتهلتُ فخلتُ أني
رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفطامِ

كما كان يقول في رسالة له إلى خاله:
«وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة، كلما نَفِدَ جَدِّدٌ».

فكيف يكون الرثاء، وكيف تكون الغربة، والشريف الرضي تطوَّح به
الفادحة الفدحاء، بموت الأم التي تجسدت فيها كل ضروب المحبة، والعون،
والحنان، فكان له في «همزيته» جثير، يتناوح فيه كل الباكين الذين فقدوا في
أنفسهم شيئاً لا يسترجع بعد فقد الأم:

وأقول لو ذهب المقال بدائي	أبكيك لو نفع الغليل بكائي
لو كان بالصبر الجميل عزائي	وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً
أوي إلى أكرمتي وحيائي	طوراً تكاشرني الدموع وتارة
وسترتها متجملاً بردائي	كم عبرة مؤهتها بأناملي
بتلملي لقد آشتفى أعدائي	أبدي التجلُد للعدو ولو درى
لو كان يرجع ميّت بفداءٍ	ما كنت أذخرُ في فداك رغبةً

ونسيتُ فيك تعزُزي وإبائي	فارقتُ فيك تماسكي وتجملي
مما عراني من جوى البرحاء	وصنعتُ ما ثلم الوقار صنيعه
تممتها بتنفس الصُّعداء	كم زفرةٍ ضعفت فصارت أنةً
ملكك عليّ جلادتي وغنائتي	لهفان أنزرو في جبال كبةٍ
في قلب آمالي وعكس رجائي	وجرى الزمان على عوائد كيده
مما ألم فكننتِ أنتِ فدائي	قد كنتُ أمل أن أكون لك الفدا

غني البنون بها عن الآباء	لو كان مثلك كلُّ أمٍّ برّة
أثر لفضلك خالد بإزائي	كيف السلو وكل موقع لحظة
فتكون أجلب جالب لبكائي	فعالات معروفٍ تقرأ نواظري

ويختتم القصيدة:

صلّى عليك وما فقدتِ صلاته
لو كان يبلغك الصفيح رسائلي
لسمعتِ طول تأوّهي وتفجّعي
كان أرتكاضي في حشاك مسيباً
قبل الردى وجزاك أيّ جزاء
أو كن يسمعك التراب ندائي
وعلمت حسن رعايتي ووفائي
ركض الغليل عليك في أحشائي (١١٧)

ولا يدري أحد بما يساور النفوس الكبيرة المرهفة، وهي تبكي الأم قبل موتها، من وجع الخوف عليها، ومن مجرد التفكير بموتها القادم لا محالة. فإن كانت قصائد رثاء الأمهات عند الموت راعفة بالعذاب الهائل، فإن قصائد الرثاء المصمتة قبل الموت، حين يحين هاجس القلق على مصير الأم التي ستغنى، هي الأكثر عظمة في عزاء اللغة، لأن الغربية من خشية موت الأم، هي من علامات ذوي النفوس الكبيرة.

لكن جزع الخوف والتوقع الفاجع، لا يسجل نفسه لأحد، لأنه يدلهم على نفسه كظلمة الظلمة، ولكل ظلمة سرداب، ولكل سرداب اغتراب ليس له باب، إلا باب الصبر.

إن الأرواح الكريمة هي وحدها التي جبلت للحب الصحيح، الحب الذي يبتدىء بمركز الدائرة: (حب الأم) ويتسع ليشمل كل لطف الله المتجسد في كائناته الحية وغير الحية.

ولم يستطع الشريف الرضي، بعد وفاة أمه الطاهرة، أن يجتمى من غوائل (الزمان)، لأنه عاش في مسار الثنائية المعذبة: الحب وفقدان الحب. وإذا كان الغريب من لا حبيب له، فإن الذي يفقد الحبيب تشطره الغربية شطراً دامياً، وترميه في الآبار البعيدة التي لا قاع لها، مقدوفاً أبداً، ناشجاً أبداً، لا أمل له في أن يحقق التلاؤم مع الزمن.

ماذا يفعل الإنسان الذي يوزع دموعه هدايا المشاركة الحزينة لمآتم

الغرباء؟ ماذا يفعل من بلغ به فيض الكرم أن يكون اللمسة الحانية، والغطاء العطوف، وخيمة الرقة، فيتفجع للموق الذين مضوا، وللأحياء الذين سيمضون؟

كانت عينه حزينة، لكن نظرها لشديد. وقد امتدت منظوراتها الأليفة، المنبسطة أمام تفرد نظراته، فتقاطع الإثنان (الناظر والمنظور) في كلمة السر.

أولم يشرح عبد الله بن طاهر الحب للمأمون قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة، انبعثت منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة، فيصوّر من ذلك خلُق حاصرٌ للنفس متصل بخواطرها يسمّى الحب»؟

إن كيمياء الكون جاهزة تماماً لإنتاج اللقاح، وهي لا تترقب غير حركة الذرات. ولقد قهر الشريف الرضي غربته بالحب، مثلما تقهر الأرض الجفاف بالماء، لكن لعبة الفصول الأربعة أخطر حكمة على الإطلاق. فكلمة (وصل) يعقبه انقطاع، وتكر مسبحة الزمن.

وكانت النفس الحزينة، نفس الشريف الرضي، المملوءة بحس الجمال، التي تكرمت فيها (العين) أحسن تكريم، فظلت مرهونة للنظر.

وهذا هو اختصاص العين: أن تنظر، وتتفحص، وتستقرىء معالم الجمال، فتسحب مواقع الفتنة المبتعدة على بساط التقارب، فيتحقق العناق.

وليست كل عين عينا، وإن كانت قدرة الله تبارك وتعالى قد نسجت كل شيء. فثمة عين كعين الأفعى، وأخرى كعين الضب، وثالثة كعين الديك ورابعة كعين السمكة، وأخرى كعين الوحش، ففي إنسان العين خلاصة النفس، وجوهرها، والعين مرسومة على قدر طبيعة الكائن الحي، فلا تستبدل القنفاذ والجنادب والفئران عيونها، فكل عين هي خلاصة رسم

الجوهر للكائن الحي .

والعين الكريمة، عين القلب، عندما تنظر إلى الكائنات البديعة، فإنها ترشها بعطر المرحمة، وأثير الإعثناء، فهي تمسح، ولا تجرح، تغسل ولا تُقذي، تتحنن ولا تقسو، إنها الخدمة التامة!

ولقد عرف الجماليون، أن نظر العين الكريمة إلى الجميل يزيد النظرة حدة، وكذلك يزيد (الجميل) جمالاً، فجاء في الشهاب: «النظر إلى المرأة الحسناء يزيد في البصر»، وقال أبو النواس:

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً

وهذا من فعل واحدة «المعزف»، ففيض العطاء، يرفع نسبة الإمتلاء في الكائنات المتعازفة، فيزداد بريق عين الرائي، ويثب جمال المرئي إلى منافذ الإتصال، فيرفع الحجاب بين المتحابين، ويحل الكشف الذي سرعان ما يصنع قوس حجابيه الذي يتراعى الأحباب تحته. إنهم يلغون الحجاب بينهم، ثم يصنعون الحجاب الذي يعزلهم عن الناس. وهكذا الحب دوماً، رفع الحجب، وإنزال الحجب. وكل كشف لا بد أن يأتيه حجاب.

وحيرة العين أنها تتحدى الحواجز والستائر، كيما تسلم على (الجميل)، لكنها إذا ما أفلحت، عاجلتها النفس بالشروط القاسية، شروط العزلة عن الناس، خشية عذل العاذلين، وارتياباً من خطف العيون التي هي بالمرصاد.

لكن العزلة - هذه - على ما فيها من معانٍ فيزيولوجية، تحمل من دلالات الحركة، أبعد من الإبحار والسفر إلى أطراف الكون. فالإختلاء بالمحبوب هو ذروة السياحة.

فالعين التي ترى هي التي تحدد «الزمن»، وتغير أبعاده، ما دامت رسولاً للقلب، وعيناً له. كذلك، تسحب عن المحبوب نياط قلب العاشق،

فهي منجم جمال المحبوب وموضع أنواره، فتجذب الأحداق روح الجمال
المرهف وتفتك به كما فتكت بالشريف الرضي الذي كانت مملكته القلب
والعين، وكان مصرع (قلبه وعينه) بسلاح عين الجميل، فقال:

يا قلبُ ما لك لا تفيق وقد رأَت عيناك كيف مصارع العشاقِ
فتكت به الحدقُ المراضُ ولم تزلْ تشجي القلوب جنابة الأحداقِ

وفي جميع قلبيات الشريف الرضي، تدور العين، فيستشعر الشريف
الرضي الجمال فيراه بميزان العين ثم يختمه بختم القلب، فما كان يدري الحب
إلاً بعد أن تعرضت العين إلى العين فقال:

وما كنت أدري الحبَّ حتى تعرَّضتُ عيون ظباءٍ بالمدينة عينِ
فوالله ما أدري الغداة رميننا عن النبع أم عن أعينٍ وجفونِ
بكلِّ حشٍّ منا رمية نابلٍ قويٍّ على الأحشاء غير أمينِ
فررتُ بطرفي من سهام لحاظها وهل تتلقى أسهمُ بعيونِ
وقالوا أنتجع رعي الهوى من بلاده فهذا معاذٌ من جوىٍ وحنينِ
جلون الحداق النجل وهي سقامنا ووارين أجباداً وسود قرونِ
ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى لكلِّ لبانٍ واضحٍ وجبينِ
يلجلجن قضبان البشام عشيَّةً على ثغبٍ من ريقهنَّ معينِ
ترى برداً يُعدي إلى القلب برده فينقعُ من قبل المذاق بحينِ
تماسكتُ لما خالط اللب لحظها وقد جنَّ منه القلب أيَّ جنونِ
وما كان إلا وقفَةً ثم لم تدعُ دواعي الهوى منهن غير ظنوني
نصصتُ المطايا أبتغي رشد مذهبي فأقلعن عني والغواية دوني

وقوله في واحدة من لواحق الحجازيات، ذاكرةً فعل اللحظ:

يا رفيقيّ قفا بضويكما بين أعلام النقا والمنحني

وانشدا قلبي فقد ضيَّعته
عارضضا السرب فإن كان فتىً
إن من شاط على الحَاطها
بأختياري بين جمعٍ ومنى
بالعيون النجل يقضي فأنا
ضعف من شاط على طول القنا

وقوله :

يا صاحبيَّ تروِّحاً بمطَيَّتي
سيرا فقد وقف الطعينُ لما به
ما سرَّني وقنا اللحاط تنوشني
إن الظباء بذى الأراك سلبني
مستسلماً ونجا الذي لم يطعن
اني هناك قتيل غير الأعينِ

وقد كان عشق الشريف الرضي معايشة رضية بين الحب والزهد . .
ورث الزهد وراثه روحية، كما ورثه وراثه ثقافية . وفي تاريخ الشعر العربي،
كان الشعراء الزهاد موجودين منذ القرون الهجرية الأولى، وهم أسبق من
الشعراء العذريين، ومنهم عبد الرحمن بن أبي عمار الشهير بالتعس، وعروة
ابن أذينة، ويحيى بن مالك وغيرهم^(١١٨).

بعبارة أخرى إن الشعر العربي نقل خطأً بيانياً لأفكار الزهد من خلال
الشعراء الأتقياء، ثم تطورت المؤثرات الزهدية في الشعر فأخذت تعبیر
العشق القلبي الذي عرف به الشعراء العذريون، فكان الشريف الرضي
امتداداً أصيلاً للزاهدين ومستوعباً استيعاباً عميقاً لحكمة الموت التي نبع منها
كل زهد إسلامي أو غير إسلامي .

وقد قال :

قد آن أن يسمعك الصوتُ
يا باني البيت على غرة
أيجزع المرء لما فاته
وإنما الدنيا على طولها
أنائمٌ قلبك أم ميتُ
أمامك المنزل والبيتُ
وكلُّ ما يدركه فوتُ
ثنيّة مطلعها الموتُ

ولكن زهدية الشريف الرضي ليست تنسكاً ورهبانية، بل هي معرفة

بالموت من خلال الحياة، فكانت روحه المشدودة بين قطبي الحياة والموت، تنبض بالحياة، بأعلى أصواتها الحرة، وتستجيب لحكمة الموت، بصورة مبادئ أخلاقية صارمة. والقلب هو القادر على تلبية نداءات الحياة الحرة، والتعري أمام الموت بقانون الحرية.

فالقلب هو الـ (أنا) بكل علنيته واستبطاناتها. وهو - بالنتيجة - يصطفي الروحي والحسي اصطفاً شفافاً فيؤلفها خير مؤالفة.

والقلب، قلب الشريف الرضي، كالميزان العادل الذي يتحسس بأوزان الجمال، فهو يلتهب التهاباً شديداً، ويضيق، عندما يدرك أنه لا يتحمل الحبس الطويل في داخل صدره، والمحجوب خارج أسوار الصدر يتلأأ، ولكن كنجم قطبي ما أبعد، وإن ذلك التناقض الذي كان يتجرعه القلب، يظل - دائماً - عنوان تجربة الزهد والعشق، فالقلب في بسط وقبض، في عطاء وأخذ، في امتلاء وفروغ، في جذب وطرد، إنه مشدود بين العلوي والأرضي، وبين الروحي والحسي انشداداً لا تفلت منه.

إن هجرات الروح ليس لها مستودع غير القلب، الذي يضيف عند الامتلاء بالحب والحسرة فيتسع اللسان بالعبارة.

وتلك المناوبة، والمبادلة التي لجأ إليها للتعبير عن أشواقهم ومكابدتهم، وجدت عند الشريف الرضي واحداً من أمثلتها المهمة، وهو القائل عن صدق شعره:

وليس من الفراغ يثرن عني نفاثات يجيش بها الجنانُ
ولكن مهجة مُلئتُ ففاضتُ وضاق القلب واتسع اللسانُ

ان القلب يضيق حيث يمتلىء، ويمتلىء حيث يضيق، واللسان أداة القلب الناطقة. وفي واقع المحبين والجمالين، يأخذ القلب دلالات مكثفة

ويصبح الرمز المقدس في حبههم وفي علاقتهم .

وربما استعار العديد من المتصوفة وشعراء الغزل من الشريف الرضي «قلبياته» التي ازدان بها شعره، فلطالما كان (القلب) ملهمه، ومرشده، ومنبع إحساسه . وقد شكى إلى الله ذلك القلب (قلبه!) الذي كان يناضل من أجل الوصال، فإذا ما وصل كان انقطاعاً . لقد كان قلبه مشنوقاً بين قطبي التوتر، وكانت نفسه تعرج بين الارتواء والعطش، بين البرد والهجير، بين الحميلة والرمضاء، فصرخت:

أشكو إلى الله قلباً لا قرار له قامت قيامته والناس أحياء
إن نال منكم وصلاً زاده سقماً كأن كل دواءٍ عنده داءٌ
كأن قلبي يوم البين طار به من الرفاع نجيب الساق عداءٌ

إن سلطان القلب على الجسم والنفس يقوم عندما تتحقق العبودية .
فحينها يكون القلب مملوكاً للمحبيب، فإنه مستعبد له - بفتح الباء - لكنه مستعبد - بكسر الباء - لجسم صاحبه، فيفقد العقل سلطته، وتصبح وظيفة الحواس مبهمه خارج نطاق المحبوب .

ومسألة القلب، إنه معذب في الوصل وفي الهجر، إنه يحمل وجهي المرأة اللذين يرى فيهما الحاضر والغائب، الممكن والمستحيل، البهجة والخوف .

وسواء أكان الحبيب قريباً أو بعيداً فإن الشوق يحجز قلب الشاعر كما

ذكر:

أقول وقد أرسلت أول نظرة ولم أرَ من أهوى قريباً إلى جنبي
لئن كنت أخلت المكان الذي أرى فهيهات أن يخلو مكانك من قلبي
وكنت أظن الشوق للبعد وحده ولم أدِرْ أن الشوق للبعد والقرب
خلا منك طرفي وامتلائك خاطري كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

إن صلة العين بالقلب، أعقد من أن يدرك بعدها الحقيقي، و«طوبى لمن كان له عين في قلبه» كما أورد (الشبلي).

فعين المحبوب تسكر قلب المحب، وبحار المحب بين سكرة قلبه وانكسار عينه أمام سطوة جمال المحبوب، فيصبح قابلاً للعبودية، مكتشفاً بذلك أسرار الحرية، فقال في بعض قلياته:

هل ناشدُ لي بعقيق الحمى	غزياً مرّاً على الركبِ
أفلت من قانصه غرّة	وعاد بالقلب إلى السربِ
واظماً القلب إلى مالكِ	لا يحسن العدل على القلبِ
يعجب من عجيبي به في الهوى	واعجبي منه ومن عجيبي
أقرب بالودّ وينأى به	ويلي على بعدك من قربِ
منعمٌ يعطف منه الصبا	لعب الصبا بالغصن الرطبِ
بلادة النعمة في طبعه	وربما ناقش في الحبِّ
أما أتقى الله على ضعفه	معذب القلب بلا ذنبِ
يا ماطلاً لي بديون الهوى	من دلّ عينيك على قلبي

ويختار القلب عبودية الحب، فيقلد المحبوب وسام الامارة، ويمنحه حق التصرف، واجداً في الطاعة سعادته الكبيرة. إن العبودية في حضرة المحبوب هي حرية المحب، أو طريقه لاكتشاف حريته التي معنى لها بحروفها ككلمة، بل هي معروفة بمضمونها، بمقادير ما يتهيأ للقلب من استبشار، ورضا، وسرور، فقال في بعض غزله:

رمانى كالعدو يريد قتلي	فغالطني وقال أنا الحبيبُ
وأنكرني فعرفني إليه	لظي الأنفاس والنظر المريبُ
وقالوا أطعت وكيف أعصي	أميراً من رعيته القلوبُ

ولأن الهموم الطائلة تناوشت نفس الشريف الرضي، فإن قلبه أضحي

مثل طير كريم أضناه العطش، يبحث عن عين ماء، ما أن يريد الارتواء منها حتى يغيض ماؤها، أو تجف، أو تظمرها الكثبان الهائجة.

ولم يحظ تساؤل بتلك النبرة الطولانية التاسعة مثل تساؤل الشريف الرضي عن هموم قلبه، وهو يتخاطب:

ما لهموم كأنها نأراً على قلبي تشبُّ

الأجل ما حمل القلب من الحب، أصبح وجيه شعراً؟ وأصبحت ناره أكبر من نار الغضا حتى أضحت الاستعارة بين القلب والنار اشعاراً بأن الجسم - كله! - في حالة احتراق، وحكم بالاعدام ينفذ يوماً بعد يوم، ترى أي قلب ذاك الذي كان يطلب الاقتداح به بدل الزناد:

يا قادحاً بالزنادِ مُرفاً قندحُ بفؤادي
نار الغضا دون نار الـ قلوب والأكبَادِ

الحسي والمثالي في العشق

إن حب الشريف الرضي الذي كان يقهر به الغربية، كمحاولة مستمرة لم تنقطع، كان يقهر به - أيضاً - في الشعر غربة الكلمة. ولم يكن حب الرضي حباً خيالياً، رمزياً، مثلما كان شعر العديد من المتصوفة الذي استخدموا عبارات الغزل، استخداماً مجازياً، فكانت أسماء النساء، هند، وليلى، وزينب، أسماء رمزية، يتوصلون من خلال قنواتها الظاهرية إلى الدلالة الروحية.

ذلك لان الرضي، وهو الزاهد الكبير، كان محباً حقيقياً، واقعياً، أي أن الحب، في حياته كان طبيعة سخية، صميمية.

إن واقعية الحب المعاش فعلاً، وضعت سمات خاصة في شعر الشريف

الرضي تقفى اثرها التصوفة، إلا أنهم اخفقوا في متابعتها إلى نهايتها الفعلية .
فحيث كان الشريف الرضي يتمسك بالحب المباشر، كان المتصوفة يتعدون
عن واقعية الحب، إلى مثالية التعلق .

إن المتصوفة ارادوا الوصول إلى الله (تعالى) من خلال الكلمة،
الإشارة، الرمز، لكن الشريف الرضي كان يعرف (الخالق) ويقده من خلال
الحياة، أي من خلال حكمة الخالق في خلقه .

ويرتبط سلوك العديد من المتصوفة الذين عاشوا في رهبانية قاسية
بأفكارهم المتكاملة الحلقات، في الحدود المعروفة للرؤية الصوفية الانموذجية،
فشعرهم الغزلي متصل بموقفهم من الحب الالهي، كما ان نظريتهم في الحب
الالهي جعلتهم يدحضون الشهوة الجنسية اصلاً، لذلك فهم عملياً مضربون
عن الشهوة الجنسية وعن أي شكل من اشكال المعاشرة الزوجية، وهم بذلك
ينسجمون مع انفسهم في تصوراتهم عن عالم الاحياء يكونه عالم ظل
وتجسيدات متغيرة، وسائرة إلى زوال .

وعندما يتكرر التشبيب بالمرأة في الشعر الصوفي، فذلك لأن المتصوفة
يجدون في المرأة تجسيداً للعطاء الالهي، ومبدأً نظراً لمكانة المرأة في الخلق
والعطاء ولمشابهتها للطبيعة الأم .

فالمرأة في الواقع هي انموذج الكيان البشري الاصل الذي تولد من
رحمة الكائنات البشرية ذكوراً واناثاً، فهي تحفل بكل المعاني المتصلة بموضوع
ميلاد الانسانية، والحياة البشرية بأسرها .

وعلى صعيد آخر، فإن الحب الذي يعد معبر المتصوفة إلى الحب
الالهي، هو عالم الرجل الذي يسعى فيه إلى الفوز بالمرأة، فكل حياة الرجل
ما هي إلا قرابين تقدم إلى المرأة ابتغاءً للوصول إليها، فهي - اذن - محور
الحب ومحتواه وهدفه .

وقد ملأت المرأة الشعر، حبيبة، وزوجة، ومقاتلة، واصبحت مقياساً للجمال، وانموذجاً خاصاً متفرداً له. وفي البداية كان الشعراء يصفون جمال المرأة بجمال الطبيعة (الشمس، القمر، الازهار، الماء الرقراق... الخ) الا أنهم بعد أن تثقفت نظرتهم الجمالية بفعل الحب، اصبحوا يصفون مجال الطبيعة بجمال المرأة، التي تنكسف الشمس أمام لآلاء عينيها، ويغيب القمر أمام سناء ابتسامتها.

فوجد المتصوفة في تناولهم المرأة - الانموذج، والمرأة - الرمز المقدس، الذي يقدم من خلال الشعر تشبيهات متيسرة.

اذن: «لكي يتكشف لنا رمز المرأة في الغزل الذي اتخذ طابعاً صوفياً محضاً، لا بد لنا أن نعرض لمقولتين جوهريتين: الأولى مقولة الحب الذي كان للصوفية فيه مذهب محدد. والثانية مقولة ماسماه (كورين) بالانثى ذات الطابع الابداعي الخالق.

وفيما يتعلق بالحب الالهي، ومكانة المرأة منه وتحديد موضعها داخل بنائه المتعالي نتبين تصنيف الصوفية للحب في تركيب تصاعدي بحسب موضوع المحبة، كما تبين رمزية الانثى فيما عرف عندهم بمدارج التجلي الالهي» (١١٩).

وحيثما ترد تعابير حسية، لذية، في شعر المتصوفة، فإن تعليل ذلك - في عرف بعض الدارسين - يتصل بالشهوة لا كغاية، وإنما بهدف استنباط دلالة ليس غير. فهي شهوة بدون واقعة، وهي توصيف للبلوغ بواسطة التوتر الذي تعرضه الشهوة احسن وابلغ من سواها. فـ «ليست الشهوة التي نصادفها في رمزية الشعر الصوفي من قبيل ماهر داعر فاضح، كما أنها لا تؤول إلى اعراض باتولوجية فيما يعرف بالسيكو + بتوفيليا وإنما تبدو في الشعر الصوفي بمثابة وعي باطن وادراك ميتافيزيقي للجسم لا يخلو من طابع

الوجدان الذي يحدس العلاقة بين الجميل، وما هو مشتبه ومثير، بحيث لا تؤول الاثارة والتشهي إلى مجرد تملك واستحواذ أو إلى اعراض فيسيولوجية محددة، وإنما تنحل إلى وعي بالغير بوصفه جسماً وامتداداً مصطبغاً بالروح والحياة، يكشف عن نفوذ الروحي في الفيزيائي وتوالج السماوي والارضي والطبيعي والمثالي.

وينم على أن الجسم منكشفاً في وضع شمول عضوي، يدخلنا بواسطة ما نستشعر فيه من شهوة - هي في حقيقة الأمر وعي وادراك للغير بوصفه جسماً يكشف في التجربة الصوفية عن صورة من صور التجلي - عالم الرؤية الثيوفانية، ويجعلنا نعانق الوجود في حيويته وغريزته المفعمة بالاسرار، متمثلة في ليل النشأة الجسمية وظلمات الغريزة».

ويوضح اصحاب الرأي المذكور عن التجربة الصوفية في الحب، أن ما تضمه التجربة من سمو روحي لا يحول دون التعبير عنها من خلال اشعار تبدو من حيث ظاهرها مفعمة بالشهوة، بشرط أن نتصور الشهوة عارية عن الفعل والمواقعة، وأن ندرك الجسم الذي هو موضوع الاشتهاء لا بوصفه مجرد امتداد خالص، وإنما على أنه شمول عضوي حاضر» (١٢٠).

ويقد ينطبق التحليل المذكور على مقاطع كبيرة من حياة العديد من المتصوفة، لكن ليس هناك جزم بأن جميع المتصوفة يجهلون المعنى العيني، الحسي، للشهوة التي تمازجت في النطفة، تمازج الشيء بذاته، في الكينونة.

إلا أنه يمكن القول إن تعالي المتصوفة على الشهوة كان امراً طبيعياً بسبب استغراقهم في التأملات والمواجيد، واستهلاكهم الناسوتية في حضرة اللاهوتية، فكان دنفهم الروحي يبعد عنهم نظرهم الذاتي إلى الغريزة. فنظرهم شاخص إلى المعبود، فكانوا يصلون في اللحظات العالية إلى غياب الذات، والوقوع في اخذة المشاهد.

في مفهوم وممارسة الشريف الرضي يأخذ الطابع الزهدي تأثيره المميز في حدود مختلفة عن حدود المتصوفة، ذلك لأن زهده غير متعالٍ على (الحسية) التي هي نتاج تفاعل القوى (النفسانية) و(الجسمانية) في مجرى العلاقة مع البشر والطبيعة والكون، والمرأة في حياة الشريف الرضي ليست مجرد رمز، كما أنها ليست تعبيراً ذا دلالة تمويهية بل هي هواء المختصة بالحب والعتاء، وهي تحمل الدالتين: الواقعية والرمزية.

ولقد جاء في الحديث النبوي: «حبب إليّ من دنياكم ثلاثاً: النساء والطيب وجعل قرّة عيني في الصلاة».

وضمن التصور المذكور تلعب التقوى دورها المرشد والهادي في التسامي بالغريزة، وتطهيرها، وتنزيهاها، وليس هناك من يؤنسن الغريزة ويشرفها، ويسمو بها مثل الحب.

وقد قال النبي الكريم: «المرء مع من أحب» وفي ذلك نبراس القلوب على طريق التآلف والمحبة.

وقد اغنى الشريف الرضي زهده من معرفته بالدنيا، المتقلبة والتي هي في أحسن الأحوال ليست غير النعيم الفاني، فقال فيها:

خطبتي الدنيا فقلتُ لها ارجعي اني أراك كثيرة الأزواج

ومثلما ترتسم في زهر العارفين الأحوال والمقامات ارتسمت في شعر الشريف الرضي احوال ومقامات للحب، توحد فيها الروحي بالحسي، والالهي بالارضي، فجاء في شعره القبض والبسط، والهيبه والأنس، والجمع والفرق، والغيبة والحضور، والصحو والسكر، والستر والتجلي، إنما في سياق تجربة واقعية مشهودة.

وهي تجربة ذات بعدين: الأول بعد الانفصال، الذي استولى عليه

بعد وفاة أمه، وبعد سلسلة المصائب والخذلان المريرة التي حضت بها حياته في جميع مراحلها المساوية.

أما البعد الثاني فهو بعد قهر الانفصال وتحقيق الوحدة المفقودة من خلال الحب الحقيقي للجسمالات التي جسدها المرأة، فالحب في واحد من أهم اوصافه «هو استفادة وحدة المغرب» و «الحب يجلي اعظم قواه هناك حيث يقهر اعظم انفعال...».

كما ابصر ذلك بنظرة نافذة (بول تيليش)^(١٢١) وارتسمت على اشعار الشريف الرضي الغزلية و(الحبية) بعامة مقامات واحوال مشابهة أو (مقاربة) لمقامات واحوال العارفين الزهاد، وكما فرضت فكرة (الحظ) نفسها على مذاهب التوكليين، فإنما دخلت في (قلبيات) الشريف الرضي بطريقة قدرية في (مودات القلوب) ما هي إلا ارزاق:

«ياحسن الخلق قبيح الاخلاق اني على ذاك اليك مشتاق
رب مصافٍ علقٍ بمذاق ان مودات القلوب ارزاق»

وارزاق القلوب لا تحتاج إلى (فتوى) العقل، أو درايته، لأن ممراتها كأقواس الالتقاءات الكونية التي تستعصي على المعرفة العقلية، والإختيار، والإقرار، لذلك ليس امام المحبوب غير الاستكانة امام جبروت سلطان الحب والمحبوب :

وما الحب الا ذلة واستكانة لمولى ارى اعزازه ويرى ذلي
ولو انني خيرتُ من أن امنح الهوى لما اخترت ان اهوى هوىً ومعى عقلي
ولكنه لا رأي في الحب للفتى فيعلم يوماً ما يمر وما يُجلي
ولو كان في العشق اختيار لأقصرت قلوب عن المحبوب ما ضمن بالبدل
ولم يحسن الصب التقاضي ودونه غريم مسيء لا يمل من المطل

وتتوزع نفس الشريف الرضي المتوترة بين (الشوق) و (الخوف) ويستبد به الشوق استبداد الداء الذي لا أمل في تجنبه .

والشوق هو مرتبة عليا في مدرج سمات النفس الولهانة، وهو- ايضاً- الحد الفاصل بين النفس الطيبة المتضوعة بأريج الحب، وبين النفس المستبدة، القاسية، التي لا تعرف غير البطش، واللعن، والكراهية. وتزكو النفس الادمية، بالأشواق، والحنين، حتى تصيح من فرط تشوقها إلى (الجميل) و (الجليل) و (العذب) ذات طقوس .

وتورق شجرة الحب، وتبرعم بكل ما اوتيت من قدرة على إنجاب الألوان بنداء ملائكة الأشواق ومع أن طموح الشاعر هو اللقاء إلا أن (الحنين) هو الذي يفجر شاعرية الحب باقصى مدى وهكذا كان حنين الشريف الرضي :

واَسألُ عن اياك كل وقت	أحنّ الى لقائك كل يوم
وتنفر عبرتي ويبوح صمتي	واذكر ما مضى فيغيض صبري
تظلم من يدِ البينِ المشت	ولي قلب اذا ذكر التلاقي

وقوله :

مي بجزع السمراتِ	من معيّد لي ايا
ومنى والحمراتِ	وليايِّ بجمع
كظباءِ عاطلات	وظباءِ حالياتِ
الدجى مختمراتِ	رائحاتِ في جلايب
ام بعقرِ البدناتِ	العقرِ القلبِ راحوا
اعيناً غير ثقاتِ	كيف اودعتُ فؤادي
سنت صيدِ الظبياتِ	أيها القانصُ ما اح
دت غير الحسراتِ	فاتك السربُ ومازو

يا وقوفاً ما وقفن	في ظلالِ السلّماتِ
موقفاً يجمع فتیان	الهوى والفتياتِ
نتشاكى ما عنانا	بكلامِ العبراتِ
نظراً يشغلُ منا	كل عين بقذاةٍ
كم نأى بالنفر عنا	من غزالٍ ومهابةٍ
آه من جيد الى الدار	كثير اللفتاتِ
وغرامٍ غير ماضي	بلقاءٍ غير آتِ

..... إلخ

ويبلغ الشوق مبلغاً عظيماً فيصبح كما قال ابن عطاء وهو يذكر الشوق قائلاً: «وهو احتراق الاحشاء وتلهب القلوب، وتقطع الأكباد».

ويتزاحم الشوق فوق الشوق، فلم يعد في الحشا مكان خالٍ، وهذه هي سنة العشاق الكبار الذين درجوا على الإشتياق، ولم تسكن نفوسهم باللقاء.

وكان (ابو علي الدقاق) يفرق بين الشوق والإشتياق بقوله: الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والإشتياق لا يزول باللقاء وفي هذا المعنى انشدوا:

ما يرجع الطرفُ عنه عند رؤيته حتى يعود إليه الطرف مشتاقاً (١٢٢)

فكانت فصول حياة الشريف الرضي، زاخرة بالإشتياق، ولربما زخر الإشتياق نفسه بروح الشريف الرضي التي ساحت في فضاءات الطبيعة، مع الطيور في شدوها ونوحها، ومع النجوم، ومع المياه فتعرف الإشتياق به، وتعرف هو بالإشتياق فصارت للمحجوب قداسة الذكرى، وهو في هجرته لم يسعف الشاعر الرضي بغير الوجد والاحتراق والدموع التي لا تطفىء أي نار فكأن روحه وجسده اصبحتا سمتين لاقاليم الروح والجسد في شخص الشاعر على هواهما، فحق له أن يتفجع:

يا طائر البان غريداً على فنن	ما هاج نوحك لي يا طائر البان
هل أنت مبلغ من هام الفؤاد به	إن الطليق يؤدي حاجة العاني
ضمانه ما جناها غير مقلته	يوم الوداع فيا شوقي إلى الجاني
مغفل عن همومي في بلهنية	ارعى النجوم وطرفاه قريران
ينأى ويدنو على خضراء مورقة	لعب النعامي بأوراقٍ وأغصانٍ
هيهات ما انت من وجدي ولا طربي	ولا لقلبك اشجاني واحزاني
ولا نظرت إلى ماءٍ على ظمأ	تبغي الورد وليس الورد بالداني
ولا فُجعتَ وقد سارت ركائبهم	يوم الغميم بغزلانٍ كغزلان
لولا تذكر ايامي بذي سلمٍ	وعند رامة اوطاري وأوطاني
لما قدحتُ بنار الوجد في كبدي	ولا بللتُ بماء الدمع اجفاني

إن ملوبة اشتياق الشريف الرضي تشمل الحبيب الغائب، والمحبوب المهاجر، والمحبوب القريب الذي يوقف نفسه بعيداً عنه، فالإشتياق الممزوج بالشكوى يتوجه نحو الراحلين، والمائتين، والمتغربين أو الإشتياق الآخر، الذي لا شكوى فيه خارج تعذيب الذات فهو يخص الحبيب القريب.

في الإشتياق الشاكي يسيح الجزع في نفس الشريف الرضي دون أن ييأس من أمل اللقاء فقال:

اترى نراخ مني الفراق	يوماً ونأخذ في التلاقي
فأغض من جزعي واحو	الدمع من بين المآقي
واروح في ظفر القوي	وقد انتصفت من الفراق

وقال كذلك:

خلوا عليك مطال السفر وانطلقوا	واسلفوك سلوا قبل ان عشقوا
لو ينصفوني الهوى ما كان عندهم	بردالقلوب وعندي الشوق والاروق

وتمدُّ الإشتياق الباكي . . تذكراته الحزينة إلى الأمكنة، فالشاعر لم ينشغل فقط بتصفيح صور وجوه الاحبة في ذاكرته، إنما كان مهموماً بذكرات الامكنة التي شهدت قصص حبه، فكان يسيل به الحنين إلى كل مكان وشيء ونقطة .

فنشأ نوع من الإغتراب الحاد الذي يقرب-من حيث لذعته القاسية- من الغربة عن الأوطان، ذلك هو الإغتراب المكاني الذي يبدو أن(ابن الفارض) اخذه من فيض شاعرية الشريف الرضي، ومن بعض الجذور المشتركة التي تتصل بجذوة الشريف الرضي في التجربة والشعر، «وليس هذا الإغتراب المكاني النابع من الحنين إلى مواطن الاحبة سوى اسقاط لاغتراب آخر ذي طابع عاطفي وجداني» وهو بذلك اغتراب مختلف عن اغتراب الشاعر القديم، الذي كان اغترابه المكاني قد «املته ظروف البيئة والمناخ»(١٢٣).

وقال الشريف الرضي العديد من القصائد المشبعة بالإغتراب المكاني المرافق للإشتياق الباكي ومنها هذه القصيدة التي قالها في شهر ربيع الاخر سنة ٣٩٢ هـ :

اقول وما حنت بذي الاثل ناقتي	قري لا ينل منك الحنين المرجعُ
تحنين الا ان بي لا بك الهوى	ولي لالك اليوم الخليط المودعُ
وباتت تشكى تحت رحلي ضمانة	كلانا (اذا) يا ناق نضو مفعج
احست بنار في ضلوعي فاصبحت	يخب بها حر الغرام ويوضع
اروح بفتيان خماس من الجوى	لهم انة في كل دار وادمع
اذا غرد الركب الخفي تأوهوا	لما وجدوا بعد النوى وتوجعوا
على ابرق الحنان كان حنيننا	وبالجزع مبكى ان مررنا ومجزع
تزافر صحيي يوم ذي الاثل زفرة	تذوب قلوب من لظاها وادمع
منازل لم تسلم عليهن مقلة	ولا جف بعد العين فيهن مدمع

فدمعُ على بالي الديار مفرق
ارى اليأس حتى تعزم النفس سلوة
ذكرت الحمى ذكر الطريد محله
واين الحمى لا الدار بالدار بعدهم
سلام على الاطلال لا عن جنابة
فيا قلب ان يفن العزاء فطالما
وقد كان من قلبي الى الصبر جانب
نعم عاذني عيد الغرام ونبهت
وطارت بقلبي نفحة غضوية
اصد حياء للرفاق وانما
نظرت الكتيب الايمن اليوم نظرة
وقلب على اهل الديار موزع
ويرجع بي داعي الغرام فاطمع
يذاد مژاد العاطشات ويرجع
ولا مربع بعد الحنين مربع
وان كن ياسا حين لم يبق مطمع
عهدتك بعد الطاعنين تصدع
فقلبي بعد اليوم للصبر اجمع
عليّ الجوى دار بميثاء بلقع
ينفسها حال من الروض ممرع
زمامي منقاد مع الشوق طبع
تردُّ اليّ الطرف يدمي ويدمع

.... الخ

ولا تقف لواعج الشوق عند الشريف الرضي عند حدود ذكرى
الاحباب وذكرى اماكن الغرام ومواطن الاحبة، بل هي تشمل حلقة جديدة
هي حلقة (ذكرى الذكرى) فتصبح كل قصة حب جديد ضمن ذكرى
الذكرى وكأنها جزء من البحر الكبير، بحر الحب الزاخر، الذي يشكل
الكناية الاصلية للاعماق النفسية للشريف الرضي .

ولتبدو النفس المعبأة بالحب والإشتياق و(ذكرى الذكرى) والرهافة التي
تنقلها من (ذكره) إلى (قصة حب جديد) إلى (حنين) و(ذكرى) وهلمجرا، بين
حب واقعي واشواق تنتمي بمرور الزمن إلى عالم الطيف . . لتبدو وكأن الحب
موجود فيها قبل أن تعي نفسها . . أي تبدو وكأن الحب ماثل في (الجلبة)
الأولى قبل أن يكتسي هيكلته الادمية .

وقياساً إلى الحب الشاسع الممتد في طول حياته وعرضها فإن أية قصة

جديدة للحب تستثير الماضي الإشتياقي الهائل بأكمله محتمة بترائه الكبير
وبكل لذائذه وعذاباته .

وتزدحم النفس نفس الشاعر الرضي بذكرى (الذكريات) موزعة
بين (الواقع) و (الخيال) بين (الفرح) و (العذاب) بين (التشبث) بالتجربة الراهنة
و(الإنسراح) وراء تجارب ومغامرات القلب الماضية .

وهو حينما يتذكر، فإن موضوعات ورموز (الحسي) و(الخيالي)،
(الواقعي) و(المثالي)، (الحاضر) و(الماضي)، تتوالج في تصورات الشاعر،
وتتداخل، وتتناسج، كأنها دورات حلزونية لا نهائية لا يمكن فرز النهايات
فيها عن البدايات .

فلا تضيف قصة الحب الجديد في لذتها، لذة جديدة، أم استطرافاً
جديداً لأن هوى الشريف الرضي قديم، وإن كان الحب سقيماً، فإنه لا
يصيب قلب سليماً، بل قلباً عليلاً منذ زمن الهوى في فكر وشعر الشريف
الرضي، فقال في النسيب، في واحدة من حجازياته :

تذكرت بين المأزمين إلى منى	غزلاً رمى قلبي وراح سليماً
لئن كنت أستحلي مواقع نبلة	فإني ألاقى غبهن أليماً
أصاب حراماً ينشد الأجر غدوة	فما عاد مأجوراً وعاد أثيماً
فلو كان قلبي بارياً ما ألتته	ولكن أسقاماً أصبن سقيماً
إذا بل من داء أعادت له المها	نكاساً إذا ما عاد عاد مقيماً
يظنونني استطرفت داء من الهوى	وهيهات داء الحب كان قديماً

فالحب قديم وليس محدثاً، وهو مقترن - في نفس الشريف الرضي -
بالأسى، يلتف وإياه التفاف المحيطات الداخلية للكرة الواحدة، التي تنطوي
على مئات الكرات المتداخلة، التي لم يكن الحزن فيها (وهي طبقات النفس)

مجرد طلاء، بل هو شخصوص جرثومي، وصبغة من الوجهين، الخارجي والباطني، فهل خلق الله نبلاء النفوس من خامة الحزن؟! إذا لم يكن الأمر هكذا، فلم كان كمد الشريف الرضي قديماً؟ ولم ذاك النزف، والنحيب، والصلب اليومي على رمح الشوق؟

في قصيدة غزل واحدة، تقدست روحه، تنتشر المفردات المأساوية التي تخبرك بعذابات المتعذب: الألم، الجوى، المصدوع، الوقوع، الظمأ، المنع، القيظ، التجرع، الغصص، الملام، التقرع، البكاء، الدجى، الخضوع، التوديع، الفراق، الهون، اللسع، الصدود، الكمد. . . وها هو المثال:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى	ألم الجوى من قلبي المصدوع
أأسأت بالمشتاق حين ملكته	وجزيت فرط نزاعه بنزوع
هيهات لا تتكلمن لي الهوى	فضح التطُّع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحباثل طامعاً	فنجوت بعد تعرُّضٍ لوقوع
وتركتني ظمان أشرب غلتي	أسفاً على ذاك اللمي المنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى	قيظٍ وهذا في رياض ربيع
كم ليلة جرَّعته في طولها	غصص الملام ومؤلم التقرع
أبكي وييسم والدجى ما بيننا	حتى أضاء بشغره ودموعي
تفلي أنامله التراب تعلُّلاً	وأناملي في سني المقبروع
قمرٌ إذا استخجلته بعتابه	لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتها	لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره	شري الهوى ما نلته بشفيع
ما كان إلا قبلة التسليم أر	دفعها الفراق بضمة التوديع
كمدي قديمٍ في هواك وإنما	تاريخ وصلك كان مذ أسبوع
أهون عليك إذا امتلأت من الكرى	أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله	لو أن قلبك كان بين ضلوعي

ومن مفعول (ذكرى الذكرى)، كان الشريف الرضي ينظر إلى الآثار
والأمكنة بجدلية الرغبة والإشفاق، الرغبة في أن يرى الطلول، والإشفاق
على نفسه من الأسى، فهو مسوق بدعوة المرور على آثار الأحباب، وحذر -
في الوقت نفسه - من المرور عليها، إنَّه مقسوم بين نداءين متعارضين، هما
نداء القلب، الأبدان، ولا خلاص له من ضغطها إلا بالشهقة التي يسجد
لها البكاء، وكل حزن:

أمن ذكر دارٍ بالمصلَّى إلى منىَّ	تعاد كما عيد السليمُ المؤرَّقُ
حينئذٍ إليها والتواءٌ من الجوى	كأنك في الحيِّ الولودُ المطرَّقُ
أالله أني إن مررت بأرضها	فؤادي مأسورٌ ودمعي مطلقُ
أكرُّ إليها الطرفَ ثم أردُّه	بإنسان عيني في صرى الدمع يغرقُ
هوأي يمانٌ كيف لا كيف نلتقي	وركبي منقاد القرينة معرقُ
فوهاً من الربع الذي غير البلى	وأها على القوم الذين تفرَّقوا
أصون تراب الأرض كانوا حلولها	وأحذر من مرِّي عليها وأشفقُ
ولم يبقَ عندي للهوى غير أنني	إذا الركب مرُّوا بي على الدار أشفقُ

وغير الإشتياق الباكي، كان اشتياق (القرب)، الذي كان للشريف
الرضي فيه سفرات يدور فيها حول نفسه، وحول محبوبه، من بعد، مثل
دوران الأرض حول الشمس، ويحرص الشاعر العاشق على المسافة بينه وبين
المحبوب حينما تدنو الخيام من الخيام، ويلج القلب بلغة شوق (أهل
القرب):

وأبرحُ ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

كما قال أحد المتصوفة .

وكما سنرى - فيما بعد - ان للشريف الرضي أسبابه الواقعية لاختيار
الإبتعاد (على مقربة من الحبيب)، إضافة إلى سمة العشاق الروحية في ذلك،

وهي سمة الإبقاء على نار الإشتياق في صهاريج الجسد، والنظر إلى المحبوب بعين القلب، لا بعين التحسس المتواصل، تقديساً للجميل، وترويضاً للذات على سبيل الإفناء من أجل المثال.

وما بين الإشتياق الباقي، والإشتياق الدفين، المكتمل بذاته، أخذت جدلية الحب بعدها الثالث، المتمازج بالبعدين الآخرين: بُعد (القرب)، وبُعد (البعد)، وهو بعد الترحل بين القرب والبعد، فكل حاضر يتأى عنه، وكل قريب مبتعد لا محالة، فتعظم مصيبة القلب، وإذا بالحب الذي كان أمل المقهور في دحر الإغتراب والقهر، والإنفصال، والدخول في الوحدة، يصبح اغتراباً، وانفصالاً، وانفصاماً، وبعضاً ينوح على بعض!

وظلت (الآهة) زفير القلب المتسائل:

أين الوجوه أحبُّها وأودُّ لو أي فداها
أمسي لها متفقداً في العائدين ولا أراها
واهاً ولولا أن يلو م اللائمون لقلت آها

لكن ماذا تستطيع الأمكنة أن تفعل للقلب المدمى؟ وماذا تستطيع اللقاءات المتواترة، أو العابرة، في القرب، أو في البعد، أن توفر لنفس متسامية في مذهب الحب؟ لا شيء، لأن مذهب الحب الذي اعتنقته روح الشريف الرضي كان يأخذ زيتته ووقوده من (الجوى)، والعذاب الطويل، فقال:

علق القلب من أطال عذابي ورواحي على الجوى وغدوي
وافترقنا في مذهب الحب شتى بين تقصيره وبين غلوي
كان عندي أن الحبيب شقيقي في التصافي فكان عين عدوي
سائي مذ نأيت نسيان ذكرني فأذكروني ولو ذكرت بسو

الحب الشقي

يوفر الحب للمحبين سعادة نادرة، تقلل - عادة - من تأثير الآلام التي يعانون منها أشد المعاناة. وفي أغلب فصول الحب ومراحلها يرتبط الألم بمسرات العشق، وتبادل الهناءة. ولم تذكر كتب تاريخ الحب، أن العشاق ذموا الهوى بسبب متاعبه وعذاباته الكثيرة. بل، وبالعكس ذلك، هي زاخرة بقصص استقبال الألم والتشوق إليه إذا كان في ذلك ذكر للمحجوب، أو تقرب إليه. فقال أبو الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي	متأخراً عنه ولا متقدماً
وأهنتني فأهنت نفسي جاهداً	ما من يهون عليك من يكرم
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم	إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد الملامة في هواك لذيدة	حباً لذكرك فليلمي اللوم

وقال ابن الدمينية:

لئن ساءني في أن نلتني بمساءةٍ فقد سرّني أني خطرتُ بيبالكِ

ويتداخل الألم في الحب تداخل الماء في النبتة، والدم في نسيج الكائن الحيواني الحي، فلم يعرف أحد حباً بلا عذاب، وليس ذلك عن (مازوكية) في طبع المحب، ولكنه تسليم بالحب ورضاً، فالحب ذروة المجاهدة، وصولاً إلى الوجد، وذروة المحو وصولاً إلى الإثبات، وذروة العبادة وصولاً إلى الحرية، وما أن يصل إلى مرتبة الشوق حتى تصبح الآلام فرائض الروح والجسد، من سقم وضنى وهم وحسرة وتسهيد، وفي ذلك قال (أعرابي) موجزاً أحسن إيجاز:

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا	يدلُّ به طوع اللسان فيوصفُ
ولكنه شيءٌ قضى الله أنه	هو الموت أو شيءٌ من الموت أعنفُ

فأوله سقمٌ وآخره ضنىٌ . وأوسطه شوقٌ يشفُّ ويتلفُ
وروعٌ وتسهيّدٌ وهمٌّ وحسرةٌ . ووجدٌ على وجدٍ يزيد ويضعفُ

ان استرواح العاب، واستحلاء الألم، أمر يدخل في سعادة العاشق،
التي ينالها، أو ينال منها وطراً، أو التي يؤمل نشدانها، فيظل إليها تائقاً،
موعوداً.

تري، ما مدى السعادة التي تحققت للشاعر الرضي في غرامياته المثيرة،
وما مدى استطاعة روحه العاشقة قهر غربته المديدة؟

إن جواباً واحداً يمكن أن يكون مقنعاً: في ملكوت (العشق) ذهب
الشريف الرضي إلى (المنفى)، إذا ما جاز استخدام ثنائية المصطلح
الكاموي: (المنفي والملكوت) (١٢٤)، فقد كان النفي الذي عاناه أشد المعاناة
صورة متطرفة من صور الإغتراب الجميل، رغم قساوته.

ويتصل ذلك بمشكلات العشاق، التي تختلف حدتها من عاشق إلى
آخر، تبعاً للمستويات الشخصية والاجتماعية والدينية والثقافية لكل عاشق.

ومرارة العشق ومكابداته الشديدة تعترض العشاق، كل العشاق، من
أناس عاديين، وبسطاء، إلى الشعراء والفنانين، فكيف يكون عشق عاشق
كبير هو سيد قوم، ونائب خليفة للمسلمين، ومدير مدرسة، وصاحب أسرة،
وذو قضية سياسية كبرى؟

كان ذلك يعني، أن مكابدات ومشاق الحب، كانت شديدة الوحشة،
فكان الشريف الرضي محمولاً بإرادته القوية، ومحاطاً بالمشكلات التي كرس
فيه روح المكابدة.

فكان يسير في أهم موسم هو موسم الحج، إلى غرامه، وإلى صيده
بصراحة هائلة: «فالشريف كان رجلاً صريحاً في جميع ما يتناوله من الشؤون.

وأظهر صفة من صفات الشريف هي بغض النفاق، ألم يتخذ الحج موسم صيد وهو نائب عن خليفة المسلمين؟» (١٢٥).

إن موسم الحج الذي يعتبر المهرجان الديني الإسلامي الأشمل، والذي كان الشريف الرضي ممثلاً للخليفة فيه، كان مهرجان الفرز الكبير في المراقبة. فكان الشاعر الرضي، بحكم وظيفته، ومكانته، وسمعته، مراقباً، تلف آلاف الأحداق حول شخصه حبال النظر، فكان مكوباً عليه أن يكون عشقه جمعاً بين (التجلي) و(التخفي). التجلي، من حيث كونه كشف الفاتن والمفتون بعوامل الهوى، فالمحب يخرج من محارة الجسد عبر واسطة الحواس متوجهاً إلى مفاتن المحبوب، فلا يستطيع الإثنان، المحب والمحبوب في لحظة صدحة العشق أن يخفيا لهفة العين والشفة واليد، فلا المحب بقادر على البقاء في محارة الجسد، ولا المحبوبة قادرة على الإختفاء وراء الخيمة.

لكن حركة الوصل محدودة العمر، إذ سرعان ما يقود العقل لعبة (التخفي) بعد إسفار المحبة. فيغض المحب متظاهراً باللامبالاة والنأي الجسدي، وتطرق المحبوبة إطراقة الحياة والحذر والخوف.

لكن ذلك لا يجري في زاوية شارع، أو بقعة في حي، أو في باحة مدرسة، إنه يجري في وسط مسرح متلاطم بالأمواج البشرية، في زمن الحجيج الأكبر، حيث كل التخفيات مرصودة أيضاً كأنها جزء من مشهد الغرام، فكان لزاماً على المتحججين، أن يزيدوا الحجاب، والاستسار، فتصبح قصة الحب قاسية التمرين، عنيدة المحاولة، وتمزقاً بين التوق والصبر، بين الحاجة والرضا، بين انتساب القلب وتهربه الظاهري من الانتساب.

وأكبر من مأساة العشق التي تجري على مسرح الرصد والترصد، والقبيل والقال، إن الآمال محلوجة سلفاً، فقد حُكم على الأماني أن تكون وعوداً، من يدري، أيجود بها الزمن، أم أنها تغادر مغادرة الرمال التي تسوقها رياح

الجزيرة الضارية إلى اللانهاية؟! فسرعان ما ينتهي أمد موسم الحج، وتذهب المحبوبة إلى موطن الأهل، أو قد تهاجر إلى المواطن المجهولة، ويظل الشاعر ينزف دم الذكرى، ويحصد مرارة التقول والشائعات.

وقد يركب فرسه، أو ناقته، متجهاً إلى الجهات العديدة، وراء بارقة أمل، أو إشارة، أو إيماءة من المحبوبة، تفيده في تحديد مكان اقامتها، فيهرب أمامه المكان، وتصبح الأرض مثل بالوعة أبدية لا حدود لسعة فوهتها، فيعود إلى (الزمن) منتظراً موسماً قادماً من مواسم الحج، لكن الزمان هو سيد اللعبة، فهو الذي علّم الأرض استعارة (اللانهاية) وضمّها إلى نهائيتها المنغلقة على نفسها. وعلى هذه الأرض - الكرة، أين النهائي وأين اللانهاية؟ أوليس كل شيء يدور بين البدء والمعاد، في التطواف الطلسمي الرهيب؟

وسار الشاعر الشريف الرضي يحصي دروب الأرض، ودروب (التبانة) ومسرى الكواكب، ملبياً ارادة القلب، ويا لها من ارادة، تلك ارادة القلب! ارادة عجيبة، مدهشة، تجعل المشتاق قمة في القوة، وكذلك قمة في المغلوبة! فكل ذو شوق مغلوب، وإن كان متفجراً بالقوة الغالبة. هذا هو قانون العشق الذي لا يخطيء. فكانت مشية الشريف الرضي، تقحماً وليست مماشاة، فكان مثلما قال أحد المتصوفة:

ثم قطعت الليل في مهمه
لا أسداً أخشى ولا ذيباً
يغلبني شوقي فأطوي السرى
ولم يزل ذو الشوق مغلوباً

ولم تكن قوة الارادة ماثلة في جراءة المكاشفة، وتبادل الحب، فقط، فقد كان هناك جانب كبير من جوانب شخصية الشريف الرضي، ينم عن قوة الارادة، وصلابتها، ذلك هو جانب (التستر)، الذي كان أكبر من (التخفي) الاضطراري، التستر الذي هو مظهر الاستمرار، حيث يغدو فصل الأسرار فصل النفس الذي تأنس به.

إن التستر هو ملامح مميز من ملامح شخصية الشريف الرضي على شدة ما تنطوي عليه شاعريته من انتهاك للصمت الكبير بعبارة الشعر، إنه تستر العفة والاستقامة .

وفي مقابلات الثنائية المريرة، كان عشقه آية ضوئية تومض وتنطفئ، تقترب وتبتعد، وعلى نار الجوى كان يحرق فؤاده، والحبيب قريب، فكيف إذا ماتئى؟! وهكذا ارتكز عشق الشريف الرضي على اندفاع الشوق، التي كان يسلمها قوتها، ويردها على عقبها أعراض المستر، فتثال الذكريات فيقول:

يقرُّ بعيني أن أرى لك منزلاً	بنعمان يزكو تربه ويطيبُ
وأرضاً بنوار الأماحي صقيلة	تردد فيها شمالٌ وجنوبُ
وأى حبيبٍ غيب النأي شخصه	وحال زمانٌ دونه وخطوبُ
تطاولت الأعلام بيني وبينه	وأصبح نائي الدار وهو قريبُ
لك الله من مطولة القلب بالهوى	قتيلة شوقٍ والحبيب غريبُ
أقلُّ سلامي إن رأيتك خيفةً	وأعرض كيما لا يقال مريبُ
وأطرق والعيان يومض لحظها	اليك وما بين الضلوع وجيبُ
يقولون مشغوف الفؤاد مروءُ	ومشغوفةٌ تدعوه به فيجيبُ
وما علموا أنا إلى غير ريبه	يقاء الليالي نغتدي ونؤوبُ
عفا في من دون التقيّة زاجرُ	وصونك من دون الرقيب رقيبُ
عشقت وما لي يعلم الله حاجة	سوى نظري والعاشقون ضروبُ
وما لي يا لمياء بالشعر طائلُ	سوى أن أشعاري عليك نسيبُ
أحبك حباً لو جزيت ببعضه	أطاعك مني قائدٌ وجنيبُ
وفي القلب داءٌ في يديك دواؤه	ألا ربّ داءٍ لا يراه طبيبُ

إن عفة الشريف الرضي، هي عفة رجل اختار التحريم اختيار المؤمن الثابت، فلم يصل إلا إلى التسليم برغبة اللثم، في تقليد شعري، ورغم

التأوهات التي انشق عنا صدره بين (اللقاء) و(الفراق) فإن أقصى ما تسعفه به
 حكمة الزمن، هو لثم القرينة، فكأنه في مذهبه العشقي يرى الجمال في
 تناسخ دائم، أو في حلولية متوزعة بين الفتيات والغزلان، فقال في واحدة من
 حجازياته وهو يذكر أيامه بئى:

وأرسي بمكة أخشباها	أحبك ما أقام مني وجمع
يجرؤون المطي على وجاها	وما رفع الحجيج إلى المصل
على الأذقان مشعرة ذراها	وما نحروا بخيف مني وكبوا
جلاء العين مني بل قذاها	نظراتك نظرة بالخيف كانت
بكل قبيلة منا نواها	ولم يك غير موقفنا فطارت
وأها من تفرقنا وآها	فواهاً كيف تجمعنا الليالي
ومن شهد الجمار ومن رماها	فأقسم بالوقوف على ألال
وزمزم والمقام ومن سقاها	وأركان العتيق وبانيها
تكونيها فأنت إذن مناها	لأنت النفس خالصة فإن لم
تبغم وهي ناشدة طلاها	نظرت بيطن مكة أم خشف
فقلت أحا القرينة أم تراها	وأعجبي ملامح منك فيها
ضممت قرونها ولثمت فاهها	فلولا أنني رجل حرام

إن العفة رفعت الشريف الرضي الزاهد إلى مكانة الرجل المحرم لا في
 مناسبات (الحرام) وحدها، بل في جميع عشقياته التي سبج فيها للجمال
 مستنبطاً منه الأزلية الالهية وأناشيد الشوق الكونية، وكيف لا وهو القائل:

«أنا مولى لشهوتي وسواي عبد لها»

ويلعب (الرقيب) الأخلاقي، الذي لم يكن إلا «ضمير» الشريف
 الرضي، دوراً حاسماً في تقرير شكل العلاقة المتبادلة مع المحبوب. والتي
 تحتويها - أصلاً وابتداءً - روحية جمالية مفرطة التناث، فالصلاة في محراب

الجمال عبادة وقربى إلى الخلاق الجليل، خالق الكائنات الجميلة، وإن الجمال الأزلي الذي طالما خاطبته (رابعة العدوية) (الإله) قائلة: «لا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي» متجسد في كائناته المخلوقة، وكان الشريف الرضي يرى جمال الجميل فيستعذبه، ويتعذب به، ولم يكن حبه إلا كرامة النفس المطمئنة، والمنزهة عن الشر، والكراهية، والتفاهة، إنها طافحة بالحب إلى آخر حدود طاقة النفس والجسد، فامتألت وفاضت بالحب والكرامة والنزاهة، وفي ذلك مصداقية استقرأ الشاعر الذي قال عن المحبين والحب:

فللحبِّ أقوامٌ كرامٌ نفوسهم منزّهةٌ عما سوى الحبِّ يا خليّ

لكن: هل يفهم الرقيب الخارجي، المراقب الأشهر، الجاسوس، والداسوس، والملفق، والفساق، والمنافق، شرف الحب، وعظمة العشق، وقداسة العلاقة؟

كان الشريف الرضي، بدافع رقيه الداخلي يتعفف، وكان بدافع عين الرقيب الخارجي المتلصص، يختار التجنب والصدود، رغم اللوعة، فكان يقول:

ألا أيها الركب اليبانون عهدكم على ما أرى بالأبرقين قريبُ
 وإن غزالاً جزتمُ بكناسه عليّ النأي عندي والمطال حبيبُ
 ولما التقينا دلّ قلبي على الجوى دليلاً حسنٌ في العيون وطيبُ
 ولي نظرةٌ لا تملك العين اختها مخافة يشوها عليّ رقيبُ
 وهل ينفعني اليومَ دعوى براءةٍ لقلبي ولحظي يا أميم مريبُ

وما يراه جمهور الوشاة، والمنافقين، والصغار، من معائب في الكبار السامقين، المعاميد في العشق والحكمة والحياة، يتضخم، لأن الشخص الكبير بعقله، وشجاعته، وكرمه، حيث يكون مرموقاً، فإنه يكون محط افتراء المفترين وتشويه المشوهين، فيكثر الاختلاق، وتتناوشه سهام المتعرض، فيلجأ

الشاعر إلى سلاحه، وهو القصيدة، فيوجه الهجو إلى من ينتقص منه، أما السياسي فيلجأ إلى سلاح الحكمة، وتختلف الأسلحة عند الشعراء، والسياسيين، والحكماء، والفرسان، غير أنها تتنوع وتتلازم عند الشريف الرضي، لأنه الشاعر، والسياسي، والحكيم، والفارس، فقال حكياً:

نزل المسيل وبات يشكو سيله إلا علوت فبت غير مراقب
جمع المثالب ثم جاء تعرّضاً بالمخزيات يدقُّ باب المثالب
وإذا اجتمعت على معائب جمّة فتنحَّ جهدك عن طريق العائب

أو يكيل الصاع صاعين بالحكمة نفسها، ومن مقامه الرفيع قائلاً:

وإن مقام مثلي في الأعداي مقام البدر تنبجه الكلابُ
رموني بالعيوب ملفّقاتٍ وقد علموا بأني لا أعابُ
وأني لا تدنّسني المخازي وأني لا يروّعني السبابُ
ولما لم يلاقوا فيّ عيباً كسوني من عيوبهم وعابوا
وكذلك:

وجاهلٍ نال من عرضي بلا سبب أمسكُ عنه بلا عيٍّ ولا حصرٍ
حمته عني المخازي أن اعاقبه كذاك تحمي لحوم الذود بالدبرِ

وكان إذا انفعل فيه روح الشاعر شديد الهجاء، قوي التعرض، يهجم هجمة الفارس، الأنوف، المتعالي على الأردياء، كقوله:

لعلّ الدهر أمضى منك غرباً وأقوى في الامور يداً وقلبا
ومقلته إذا لحظت حسامي تغضُّ مهابةً وتفويض رعبا
فكيف وأنت أعمى عن مقالي ولو عاينته لرأيت شهباً
عذرتك أنت أردى الناس أصلاً وأخبت منصباً وأذلّ جنباً

وأنت أقلُّ في عينيَّ من أن أروعك أو أشنَّ عليك حرباً
أعجب من خصامك لي وجدِّي رسول الله يوسع منك سباً
ومن رجم السماء فلا عجيبُ يقال حثا بوجه البدر ترباً
فإنك إن هجوتَ هجوتَ ليثاً وإني هجوتُ هجوتُ كلباً

الشيبة: ذلك الضيف غير المحتشم!

الشيبة؟ قاتل الله الشيبة! ما أبغضه على النفس الفنانة المرهفة التي امتهنت لذة العلاقة في التواصل مع الجمالات التي تولد في كل الـ (هنا) والـ (هناك). في الزهور التي تولد، في المياه التي تنبثق... في الثمار التي تتدلى من الأغصان... في أوراق الأشجار الخضراء... في إطلالة القمر... في تعريسة الشمس، في الغناء الشجي، في كل فتن الجمال، ومواسم الحب، وكرنفالات الفرحة... ما أبغض الشيبة على النفس الموهبة بالجمال، والمترعة بالحب، إلى حد تجاوز الذات، والذوبان في المحبوب.

وفي الوجه الأنثوي الذي يحكي قصة الخلق، والرمز الأبدي للولادة والعطاء السخي، والتوحد، تحللت جميع صور الجمال، وملامح الفتنة، وتشوقات الإحساس.

فمن يفتقد جمال الطبيعة، فإنه يعثر عليه في جمال وجه المحبوب، ومن يُرد اكتشاف مجاهيل نفسه الطاهرة، فإنه يعثر (عليها) على صفحة وجه المحبوب. فعلى الوجوه الجميلة إضامات الورد والأزهار، وكل النماذج البديعة في الطبيعة والكون، إنها تحيا في الجمال بعلاوية الإحتفال، والتعبير بالدلالة والرمز وسر الرونق.

وحين لا يعرف المحبوب أسرار جماله، مستسلماً إلى نعاس اللامعرفة، وحر اللامبالاة، والكسل الطريف الذي يزيد الجمال جمالاً، فإن الجمالي،

الفارس المجلي في ميدان الحب، وهو ألف ألف ميدان، يكتشف بعينه كنوز الجمال النائم، فيوقظه بهزة الأكتاف، موجداً له اعتباره.

إن الجمالي يرى، ويتفحص، لكنه أكبر من ذلك مكتشف عظيم. يرى (الماس) تحت الفحم، و (الذهب) تحت التراب، والضوء وراء العتمة... إنه يقرأ أسرار الوجه، ويفك ألغازه الحروفية، فيحرر وجه المحبوب الجاهل بنعمة جماله، من الغفلة والبلادة، واللاعلم، ويقول له: ها هو كوكبك السماوي.. هناك نجمك الذي يربك، وأنت غشيم لا تدري!

ومن يرى السماء جيداً تنفك عنه عقدة البلادة!

لو كان الجمالي مجرد مراقب، يتذوق الفتنة، لكان الأمر بسيطاً جداً، ولما كانت للآلام في دنيا العشق مذاهب. لكن الجمالي بحار مغامر، يطوف في عالم العيون بحثاً عن المقلة. إنه يخدم أنشودة قلبه، يتحسس الجمال، من قرب ومن بعد، فهو (اللامتمي المنتمي): اللامتمي بجولاته الكبرى على خريطة الأرض، أرض الله التي لا يرثها إلا الصالحون من عباده.. وهو المنتمي إلى الحب، والحق، واللطف. والمسرة، وإطلاق هوى النفس على هدى «إلأ ما رحم ربّي»^(١٢٦)، الجمالي هو البحار والسفينة والبحر، إنه يترقب، ويراقب، وبحث، ويغامر، وراء الولادات الجديدة، والإبتسامات العذبة لمنيع الجمال...

ويترعرع الجمال، ويتسع، وينتفش في شراكة الناس الراضين المسرورين، تحت خيمة الحق، الذي هو الله. فالجمال هو سر الله المتجلي، في البشر السعداء، والحق هو الرعاية، والهداية، والمآب.

والحق هو ضمانة الجمال، والعدل، والخير، والصدقة، هو ضمانة الضحك الفرح، لا «الضحك كالبكا»، الضحك السعيد الذي بدونه تكون الحياة مثل الموت، أو أشد من ذلك ظلاماً.

ومحنة الجمالي المغامر أنه محاصر بأعداء الحب، حب الله وحب البشر،

وحب الجمال، وأحكمت وقائع الدهور تشخيصها: (المحبوب) ضعيف،
و(المحب) ملعون، و (العلاقة) جناية، فوا أسفاه على المنكسرة قلوبهم!

وفي انكسار القلب، وأساه، وفي الجوى الحارق، وفي أرق الحب، وفي
عناء الإكتشاف بعد المخاطرة، ثم ضياع (أطلانطس العشق)^(١٢٧) تحت كتل
مياه المحيطات الهائلة، بعد أن حط العاشق قلبه على حافة البداية، في هذا
الفقدان، والتلف، يشتعل الرأس شيئاً.

والشيب شيبان، شيب الزمن (من طول العمر)، وشيب المعاناة
الإنسانية الشديدة، التي لا يعرفها إلا الذين تفجرت قلوبهم بالحب والشهامة
والعطف والإكرام، معاناة الأباة الأحرار.

وأوجز أحد الشعراء في ذلك قائلاً:

وما شاب رأسي من سنين تعددتُ ولكن رأسي شيبته المصائبُ

وكم تحدث الشعراء الكبار ذوو النفوس العظيمة عن الشيب،
بالنحيب الذي تفضحه الكلمات، فجاءت قصائدهم أحرَّ التعازي، ورموا
كلمات اللعن بوجه بياض الشعر، فبدأ أسود من الظلمة في عين (المتنبي)
عندما قال:

ضيفٌ ألم برأسي غير محتشمٍ والسيف أحسنُ فعلاً منه باللّم
إبعدُ بعدتُ بياضاً لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم

وكذلك في قول (أبي تمام):

له منظرٌ في العين أبيضُ ناصعُ ولكنّه في القلب أسودُ أسفعُ

وكان البحري يودُّ لو أن السيف أعمل في رأسه، ولا بياض الشيب

فقال:

وددتُ بياضَ السيف يوم لقيني مكان بياضِ الشيب حلَّ بمفرقي

ترى، ما حال الشريف الرضي، وهو العاشق الكبير، بالفتوة كلها،
وبالشرف الجليل، وبنباهة السيادة، وبالعز الإلهي الذي ذخرته السلالة
النبوية المكرمة، المؤصلة، رغم صلافة المضلين، المضللين، المتكبرين،
الفاسقين، ناسجي ملحمة الزور والبهتان؟

لقد كان من أناسٍ تحفظ صدورهم بعلوم كثيرة، مثلما تنوء بالبلوى
بصمت، فكأن العلم والشقاء، قدّر لهما، أن يكونا في كفةٍ واحدة. وكان
المركب المأساوي للشاعر الرضي تروية العذاب، ففي كل حين كانت تصدمه
الصدمة، وتفجأه المفاجأة، وهو كائن إنساني أصيل لا يستطيع التواري،
فكان أن ظل سائراً بين الناس والأمكنة بجلباب الأحزان.

لقد تجرّع، منذ الصبا، غيظاً كثيراً، فلم لا يأتيه الشيب مبكراً؟

والشيب يهجم النفوس الرقيقة، الطاهرة، المصفاة بالمعرفة والحب،
عند انكسار واحد، فكيف إذا تتالت الإنكسارات، وكثرت الإساءات،
وتفاقم الغدر حتى أصبح شريعة؟ إن الشيب، لا يتوانى عن الهجوم، فهجمته
غارة، وأية غارة... لا تعرف التريث أبداً، فكأنها تدخل مع بياض النفس
الجليلة، في سباق لا مثيل له.

النفس البيضاء تريد إكليل الشعر الأسود، لكن تمسّس الضمير
المحبط، يقضي على سواد الشعر، من الجذر، وهذا هو فعل الدم المحترق،
بشواء القلب.

ويذهب سواد الشعر الفاحم، الزاهي، ذهاباً أبدياً، مثلما تذهب
الأيام، فلات رجوع!

وكما قال (المتنبي) عن ذلك الضيف غير المحتشم: الشيب، التهم
البياض شعر رأس الشاعر التهاماً، مبكراً، وسريعاً، فكانت للشاعر مع

الشيب حوارات، وليس مجرد أبيات شعر.

فحين كان عمره ٢٣ سنة رأى في شعر رأسه طاقات بياض، فقال:

عجلت يا شيب على مفرقي
وكيف أقدمت على عارض
كنت أرى العشرين لي جُنَّةً
فالآن سيان ابن ام الصِّبا
يا زائراً ما جاء حتى مضى
وما رأى الراؤون من قبلها
ليت بياضاً جاءني آخراً
وليت صباحاً ساءني ضوؤه
يا ذابلاً صَوِّحَ فينانه
حطَّ برأسي يققاً أبيضاً
هذا ولم أعد بحال الصبا
من خوفه كنت أهاب السرى
فليتني كنت تسربلته
قالو ادع القاعد يزري به
قد كان شعري ربما يدعي
فالآن يحميني ببيضائه
قل لعذولي اليوم نم صامتاً
طببتُ به نفساً ومن لم يجد
لم يلقَ من دوني له مصرفاً

وأبي عذرٍ لك أن تعجلا
ما استغرق الشعر ولا استكملا
من طارق الشيب إذا أقبلا
ومن تسدَّى العمر الأطوالا
وعارضاً ما غام حتى أنجلى
زرعاً ذوى من قبل أن يبقلا
فدى بياضٍ كان لي أولاً
زال وأبقى ليله الأليلا
قد آن للذابل أن يُختلى (١٢٨)
كأما حطَّ به منصلاً (١٢٩)
فكيف من جاوز أو أوغلا
شُحاً على وجهي أن يبذلا
في طلب العزِّ ونيل العلا
من قطع الليل وجاب الفلا
نزوله بي قبل أن ينزلا
أن أكذب القول وأن أبطلا
فقد كفاني الشيب أن أعذلا
إلا الردى أذعن واستقبلا
ولم أجد من دونه موثلاً (١٣٠)

ويخضع الشاعر نفسه إلى مراقبة شديدة، فهو لا يسمع أنات قلبه فقط، وإنما يشهد أي تغيير في هيئته، في معالته . . في لون شعر رأسه، وقد رأى وهو ابن العشرين الصقيع الوافد على رأسه . . ذلك البرد القاسي الذي

لا يتناسب مع غليان نفس الشاعر وحرارتها المضطربة ذلك العدو الأخطر من كل عدو والذي قال فيه :

ما لِقائي من عدوِّي كلقائي من مشيبِ
موقدُ ناراً أضاءت فوق فوديَّ عيوي
وبياضُ هو عند الـ بيض من شرِّ ذنوبي

إن عوامل الشيب المبكر قائمة في رقة الذات الناصعة التي كانت مطوقة بالاجحاف، والظلم، والغدر، وأليس، أسرع الأشياء إنكساراً، المصباح المنير؟!

وفي تعامله مع الزمن كان الشاعر يراقب سرعة إنقضاء الأوقات الهنيئة، لقد تخللت دماغه، ونفسه، فكرة الضياع، والتبدد، حيث كانت الحقوق تضيع، والفرص تُهدر، والجمالات تتباعد، فلا يتبقى إلا الحرمان وكبر النفس. وتمر السنوات مسرعة، كأن الشباب ومضة، وليس مرحلة كبيرة من العمر.

وما بين العشرين والثلاثين من العمر، يتملأ نفسه، فإذا بغربان الليالي التي تنعق نعيقاً لا يتوقف، تُطير غراب رأسه (١٣١).

فتحل محطة الثلاثين من العمر، والشاعر قد تلعف رأسه بالشيب فكامله وصفاً وعتاباً، وذمماً، وتحسراً، وأسى.

ويبلغ الإغتراب الزمني بالشاعر مبلغاً مأساوياً فرأى (الثلاثين) عمر اللاعودة، حيث يضيع الصبا، مثلما ضاعت الآمال؛ (النخلات التي حنظلت) حين عبر عن ذلك قائلاً:

غرست غروساً كنت أرجو لحاقها وآمل يوماً أن تطيب جناتها
فإن أنثرت لي غير ما كنت آملاً فلا ذنب لي أن حنظلت نخلاتها

كم من الشعراء رأى في الثلاثين من العمر نهاية أجهل العمر؟ لقد قال
الشريف الرضي ذلك:

قال لي عند ملتقى الركب عمرو
أين ذاك الصبا وأين التصابي
من قضى عقبة الثلاثين يغدو
لم تزل والمشيب غير قريب
كنت تبكي الأحياء فأستكثر اليو
م من الدمع وأندب الأمواتا
قوّم العود بعدنا فأنصاتا
سبقا الطالب المجدّ وفاتا
راجعاً يطلب الصبا هياتا
ناعياً للشباب حتى ماتا

ولا يخفي الشاعر الشريف الرضي همه وهو يراقب زحف الشيب
المبكر، مثلما يلمس بنفسه عداء الأعداء وبعض ذوي القربى الذين حاربوا
كفاحه في طلب العلى.

فكان أن حسب الشيب عدواً خطيراً جاءه من داخل كيانه الجسدي .
فيسقط إحساسه الإغترابي بفعل تأله من الشيب الغازي، على الزمن، الذي
هو: «أب كل غريبة!» فأنطقه الشيب:

قل لليالي قد ملكت فاسجحي
من أيّ خطبٍ من خطوبك أشتكي
إن أشك فعلك من فراق أحبّتي
ضوءٌ تشعشع في سواد ذوائبي
بعث الشباب على مقبةٍ له
لا تنكرنّ من الزمان غريبةً
ولغيرك الخلق الكريم الأسجحُ (١٣٢)
وعن أيّ ذنبٍ من ذنوبك أصفحُ
فلسوء فعلك في عذارى أقبح
لا أستضيء به ولا استصبحُ
بيع الحليم بأنه لا يربحُ
إن الخطوب قليبها لا ينزحُ

وحينما تجاوز الثلاثين من العمر أخذ الشاعر يرثي شبابه، مشيراً إلى
حيف الزمان:

وما زال الزمان يحيف حتى
نضى عني السواد بلا مرادي
نزعتُ له على مضمضٍ لباسي
وأعطاني البياض بلا التماسي

ولم أبلغ إلى القلل الرواسي	أليس إلى الثلاثين أنتسابي
وما جرّ الذبول على غراسي	فمن دُلّ المشيب على عذارِي
كصادرة السهام عن القياس (١٣٣)	سأبكي للشباب بشارداتٍ
لعهدك يا شبابي غير ناسٍ	فمن يكُ ناسياً عهداً فإني
فكيف يكون وجدي بعد ياسي	وكنت عليك مع طمعي جزوعاً
ضياح الدمع بالطلل الطماس	لضاع بكاء من يبكيك شجواً

ويصبح الشيب مشكلة، وحديثاً شعرياً دائماً، يتداخل وموضوع المرأة حتى يشكل الطرفان (المرأة والشيب) ما يشبه الديالوج: في الحوار، والإستعارة، فتفتق الجروح، وتختلط الإتهامات، ولا تنجو المرأة من تحميلها المسؤولية ف: «دُلّ البيض أول ما أشابا» بقول الشريف الرضي:

وما هذا البياض عليّ عابا	أرابك من مشيبي ما أرابا
فإني مبغضٌ منك الشبابا	لئن أبغضت مني شيب رأسي
ودلّ البيض أول ما أشابا	يدمّ البيض من جنع مشيبي

أهكذا فعلت المرأة بالعاشق؟!!

إن موقع المرأة في أفكار الشريف الرضي وإحساساته عن الشيب، موقع شديد الإحراج، والأذى. فالمرأة تنظر بعين الناس، وتتحدث بلسان الناس الذين يرون أن الشيب علامة الشيخوخة، لكن ما يراه الناس ويذكرونه، يتجسّم ويتضخّم في نظر المرأة. فهي في عمر الصبا والجمال تعشق الصبا والجمال، وتزدري الشيخوخة، وكل ما هو دال على الشيخوخة، وهل أبلغ من الشيب دليلاً، وإن كان مخادعاً؟!!

إن الشيب، هو - في رأيها - وقار الأب لا وقار الحبيب، إلا إذا كان الشيب قد وخط شعر رأسها مثل الرجل الذي أدركه المشيب.

لم تكن للمرأة^(١٣٤)، في البيئة العربية، حينذاك، ثقافة عقلية، بل هي ذات معرفة حسية مندمجة بتنفس الطبيعة، وتعاقب أشكال وصور الحياة فيها، فهي لا تملك غير الرثاء لمن علا رأسه الشيب، إلا في حالات العشق الراسخ، الذي خبره الزمن. والمعرفة الحسية تزرع في الطبيعة الأنثوية شجيرة للطبع اللعوب، الذي لا يغادر المرأة، حتى ولو دخلت فيها بعد الثلاثين من العمر. وقد تفلح تجربة الأمومة في كبت ذلك الطبع، إلا أنها لا تستطيع قهره إلا بالدين أو بالفكر. وهو يتفلت في ضحكة راغبة، أو في حركة تدلع مفاجئة، وفي التسارر مع صاحبة أو صويحبة عن قصص وأخبار نسائية، بكل ما يحتمله ذلك من إسقاطات وإسقاطات معكوسة.

والشاعر الشريف الرضي، المدرك للأبعاد الواقعية للمعرفة الحسية للمرأة، وموقفها من الشيب، يفهم ما تعنيه عبارة أسف ترد على لسانها، أو نظرة تأسّ تشي بها عيناها. فالعبارة والنظرة تردانه إلى كوخ البرد القارس، إلى الإحساس بالإغتراب الزماني الذي يسحق الكائنات الحية في الموعد المحدد، إلى الشعور بالاعودة، بعد تصرم الشباب، شبابه التقليدي المحسوب بالسنوات، فكأنه يستعير حيسوبة عمره من نظرة امرأة، أو من تعليق أخرى!

لكن شبابه الروحي الهائل، الذي يرفض لعبة الزمن، يرتدُّ به إلى نقطة أخرى، تشده إلى نفسه المتوحدة شديداً، وتلمُّه لماً. تلك هي نقطة خوف الكبرياء من جرح صدود المرأة.

وكم هو محتاج. (كذلك كان!) إلى أن يلتم ككرة نار ضد الأفكار والآراء والاحساسات المتقاطعة التي تذبح النفس ذبحاً لا يرقى إلى مستواه القتل. فحيث يرى الآخرون الشيب يجلل رأسه، يعلم تمام العلم أنه شاب، وما الشيب هذا إلا صبغة الخطوب والمآسي التي تجرعه جرعة جرعة، يوماً إثر يوم.

وهو إذ يقبل على مورد الحب بكل قوته الشبابية، الروحية والجسدية، وهو المجدبول على العشق، فإنه يكبح نفسه بقوة كبريائه الروحية خوفاً الانجرار من ملاحظة انثوية حول بياض الذوائب، حول الشيب، الذي تكرر كمفهوم عن الكبر، وعن ضياع الشباب.

حتى وإن كان الشيب خطأ حلَّ برأس الفتى، إلا أن ديبه يسرع إسرعاً لا راداً له، حتى يصل إلى وثيقته الزمنية، متمسك الكهولة والشيخوخة.

فماذا تستخلص الكبرياء من فائدة في فترة وجيزة هي فترة الضيافة اللازمنية للشيب أليست هي فترة التأويل، وسماع الملاحظات، والتعليقات المتأسية، والمتأسفة؟!

وتصد الكبرياء الشخصية على نفسها النوافذ، وتبالغ في الابتعاد لأن كرامة الطبع الأصيل تأتي قبول التجريح.

لقد هجم الشيب، ومشية الدنيا هي: الهوى للشباب، ودوام الهوى في ضمان الشباب، وكان هذا ما رآه الشريف الرضي وهو في الأرق الأشد:

دوام الهوى في ضمان الشباب	وما الحبُّ إلا زمان التصابي
أحين فشا الشيب في شعره	وكتَّم أوضاحه بالخضابِ
تروعين أوقاته بالصدودِ	وترمين أيامه بالسبابِ
تخطى المشيب إلى رأسه	وقد كان أعلى قبابِ الشبابِ
كذاك الرياح إذا استلأمتْ	تقصفُ أعلى الغصون الرطابِ

ويحتدم الصراع - داخل النفس - بين إرادة العشق، والدروس الذاتية الناشئة من تعذيب الشيب المبكر، وحقاً، إنه صراع مخيف.

فإرادة العشق هي طبيعة روحانية، ونفسية، وجسمية، خولته أن

يكون سيد العشاق، الذي تزوره الأشواق وتتخاطفه، كلما شكاً محب ولهان، وهو إمام العشاق، وصاحب الطريقة، المقدم الذي يتبعه كل عاشق ويشرب بقيته، ويردُّ على وروده، كما دلَّ على نفسه بقوله:

وإني لمجلوبٍ لي الشوق كلما تنفّس شاكٍ أو تألم ذو وجد
تعرّض رسل الشوق والركب هاجدٌ فتوقظني من بين نواحمهم وحدي
فقلت لأصحابي ألا تتزافروا رويدكم إن الهوى داؤه يعدي
وما شرب العشاق إلا بقيتي ولا وردوا في الحب إلا على وردي

وكان هو الذي يعير دموعه للعشاق لبيكوا، كما قال:

وابكٍ عني فطال ما كنتُ من قُب لُ أعير الدموع للعشاقِ

تري هل تندحر تلك الإرادة الطبيعية أمام حضور الضيف غير المحتشم: الشيب؟ لا... طبعاً. لأن العاشق الأصيل ينظر بنور قلبه، ويتحرك بإرادة قلبه، ملتجئاً بقلب الكون، وتيارات الحياة، ما بين المشرق والمغرب، ليس هو الإنسان الذي ينطوي فيه العالم الأكبر؟ فلم لا تتحد عناصره بنظائرها عناصر الكون، مسترجعة الوحدة بين الانسان والطبيعة، بعد القطيعة، والانفصال؟!

لكن زفير الشيب مكثرة للتلاوم، ومدعاة للتحسس المفرط، ولأن الزمن كان ثقيلاً بخطوبه ومحنه، فقد بدت الأعوام الثلاثون كالشيخوخة، وما هي بذلك! فقد تبتدىء الحياة الحقيقية لدى البعض في سن الثلاثين، أو في سن الأربعين، ويختلف تصنيف الأعمار لدى الشعوب، وبين الأفراد، اختلافاً مرتبطاً بتجارب الشعوب وتجارب الأفراد.

إنها تصاريف الزمان، إذن، وتباريح الهوى التي جعلت التوجع من الشيب في سن ما بعد الثلاثين كأنها نفث الشيخوخة ونثيثها الذي لا ينقطع.

فكان، بإزاء المرأة، واقعاً في طرفي التناقض، بين الهوى، والصدود
 عن الهوى، ما دام انطباعه بأن ما بعد الثلاثين هي مرحلة انقراض الشبيبة،
 فقال وقد حلق وفرته بمنى ورأى فيها البياض المتزايد :

لا يبعدين الله بُرد شبيبةٍ	ألقىته بمنى ورحتُ سليباً
شعرٌ صحبتُ به الشباب غرانقاً	والعيش مخضراً الجناب رطيباً
بعد الثلاثين انقراض شبيبةٍ	عجباً اميم لقد رأيت عجبياً
قد كان لي قسطاً يزين لمّتي	شروى السنان يزين الأنوباً
فاليوم أطلب الهوى متكلّفاً	حصراً وألقى الغانيات مريباً
إمّا بكيت على الشباب فإنه	قد كان عهدي بالشباب قريباً
لو كان يرجع ميّت بتفجعٍ	وجوى شقتُ على الشباب جيوباً

وعبثاً حاول البرهنة على أن بياض الشعر أدق وأكثُر وفاء من سواده
 الذي سرعان ما يفارق، أو بقوله إن السواد عمى، والبياض بصر، فلا
 شافع له عند من ترى المشيب ذنباً لا يغتفر، ذلك ما ورد في رائيته :

من شافعي وذنوبي عندها الكبرُ	إن المشيب لذنبٌ ليس يغتفرُ
راحت تريح عليك الهمم صاحبة	وعند قلبك من غيِّ الهوى سكرُ
رأت بياضك مسوداً مطالعه	ما فيه للحبِّ عينٌ ولا أثرُ
وأني ذنب للونٍ راق منظره	إذا أراك خلاف الصبغة الأثرُ
وما عليك ونفسي فيك واحدةٌ	إذا تلون في ألوانه الشعرُ
أنسأك طولُ نهار الشيب آخره	وكلُّ ليل شباب عيبه القصرُ
إن السواد على لذاته لعمى	كما البياض على علّاته بصرُ
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبةً	والسود مستوفزات للنفوس عُذرُ

لقد هال الشريف الرضي نزوع شعر رأسه إلى البياض في باكر الأيام،
 وهاله أن الشيب وطأ هامته وهو في أوج الفتوة، فكانت له مع الشيب
 أحاديث الصباح، والمساء، والليل، وطالت المداخلة، لا مع نجى يبثه

النجوى، أو مع نديم يبادلُه أنخاب المسامرة، بل مع شقيٍّ أورثه أشد الحسرات.

لقد تغلّغت أحاديث المشيب في شعره، مع تغلغل البياض في شعر رأسه، ومع تغلغل المكائد من حوله، ضد نفسه العزيزة من قبل أذلاء النفوس، وصدق فيما قال:

يصل الذليل إلى العزيز بكيده والشمس تظلم من دخان الموقد

وحيث كانت المكائد تحيط به أنى ذهب، كان يقاوم الإلغاء بتأكيد ذاته، فكان يوقّع على خطواته في الحياة، كمن يوثق سيرته دفعا للغدر، وتصدياً لغرْبته المديدة، وما درى أن غرْبته بعد الموت أنكى من غرْبته في حياته، وها هو موضوع «قبره» رهن التساؤل والاختلاف، كأنه قبر مجهول! كذلك كان يوثق شعره بقلمه، خشية أن يضيع أو يحرف، أو يشوه، ورغم ذلك ظل شعره طيِّ النسيان والاهمال والتجاهل، ولم ير النور إلا قريباََ جداً في حساب زمن القسوة والجحود.

فكأن الاغتراب والغربة قدره في الحياة وفي المات. لكن الضباب لا يطمس قرص الشمس!

كُتب في (١٠ محرم)

انتهى في (١ صفر) ١٤٠٦ هجرية -

١٩٨٥ ميلادية

- (١) سورة «يس» الآية ٦٩ .
- (٢) سورة «الطور» الآية ٣٠ .
- (٣) سورة «الحاقة» الآية ٤١ .
- (٤) سورة «الشعراء» الآيات ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
- (٥) سورة «الشعراء» من الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ .
- (٦) عبد اللطيف شرارة: معارك أدبية .
- (٧) الديوان ص ٦٤٥ ، ٦٤٦ .
- (٨) الديوان: ص ٥٢٦ .
- (٩) ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، للمحب الطبري . وتال : أخرجه أبو سعد والملا في سيرته .
- (١٠) رواه مسلم في فضائل علي .
- (١١) أحمد والبخاري والترمذي . عن حديث سعد بن أبي وقاص .
- (*) عن سيد شباب أهل الجنة : الحسين بن علي بقلم : حسين محمد يوسف .
- (١٢) العطلول: المرأة الفتية الجميلة .
- (١٣) الذحول جمع ذحل وهو الثائر أو طلب المكافأة .
- (١٤) الشريف الرضي - الديوان ص ٦٥٨ - ٦٦٠ .
- (١٥) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة» .
- (١٦) زكي مبارك: «عبقرية الشريف الرضي» .
- (١٧) ابن أبي الحديد: «شرح نهج البلاغة» .
- (١٨) الشريف الرضي: الديوان ص ٢٣٦ .
- (١٩) الشريف الرضي: الديوان ص ٢٣٧ .
- (٢٠) الشريف الرضي: الديوان ص ٢٣٨ .
- (٢١) زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي .
- (٢٢) زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي .
- (٢٣) زكي مبارك: المصدر نفسه .
- (٢٤) المصدر نفسه .
- (٢٥) المصدر نفسه .
- (٢٦) محمد جميل شلش: «الحماسة في شعر الشريف الرضي» .
- (٢٧) المصدر نفسه .
- (٢٨) بيتمة الدهر للثعالبي - عن المصدر المذكور .
- (٢٩) وفيات الأعيان (شمس الدين أحمد بن إبراهيم الشافعي) - عن المصدر (محمد جميل شلش) .

- (٣٠) اليتيمة (عن المصدر المار ذكره).
- (٣١) د. عبد الستار السيد متولي: (أدب الزهد في العصر العباسي).
- (٣٢) سورة «لقمان» آية ٣٣.
- (٣٣) الشريف الرضي: الديوان ص ١٧٨.
- (٣٤) البيهقي: حديث نبوي.
- (٣٥) الشريف الرضي: الديوان ج ٢ ص ٦٥١ - ٦٥٤.
- (٣٦) أبو العلاء المعري، لزوم ما لا يلزم.
- (٣٧) المصدر نفسه.
- (٣٨) المصدر نفسه.
- (٣٩) د. عبد الستار السيد متولي: «أدب الزهد في العصر العباسي».
- (٤٠) سورة يونس، الآية ٤.
- (٤١) سورة مريم
- (٤٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.
- (٤٣) سورة الرحمن، الآية ٢٦.
- (٤٤) سورة البروج، الآية ١٣.
- (٤٥) الشريف الرضي: (الديوان ص ٨٢٠).
- (٤٦ - ٤٩) د. زكي مبارك: عبقرية الشريف الرضي ج ٢.
- (٥٠) المصدر نفسه.
- (٥١) المصدر نفسه.
- (٥٢) د. زكي مبارك: المصدر نفسه.
- (٥٣) د. كامل مصطفى الشيبني: (الصلة بين التصوف والتشيع) من حلية الأولياء.
- (٥٤) المصدر نفسه.
- (٥٥ - ٥٨) د. كامل مصطفى الشيبني: المصدر نفسه (عن صفة الصفة).
- (٥٩) محمد جميل شلش: المصدر نفسه
- (٦٠) المصدر نفسه.
- (٦١) المصدر نفسه: عن (الكامل) و(مسكويه).
- (٦٢) الشريف الرضي: الديوان - ص ٦٨، ٦٩.
- (٦٣) الجنيب: الفرس.
- (٦٤) الحوب: الأثم.
- (٦٥) محمد جميل شلش: المصدر نفسه.
- (٦٦) المصدر نفسه عن (البداية والنهاية).
- (٦٧) المصدر نفسه.
- (٦٨) المصدر نفسه.
- (٦٩) الجَمّ جمع أجم وهو الرجل بلا رمح والكبش بلا قرن، والقرن بالكسر هو الكفوء في الشجاعة، والرؤق بالفتح القرن، والجازي الأغن كناية عن الظبي.

- (٧٠) الشريف الرضي : الديوان .
- (٧١) المصدر نفسه .
- (٧٢) الديوان .
- (٧٣) د. زكي مبارك : عبقرية الشريف الرضي .
- (*) لأهمية القصيدة نشر غالبية مقاطعها إثباتاً لصواب الرأي المعروض، وحرصاً على الفائدة الدوقية
المجتناة من قراءة أحسن القصائد .
- (٧٤) الشطن بالتحريك : الحبل الطويل .
- (٧٥) المصعب : الفحل .
- (٧٦) لا لعل له : عبارة قديمة تفيد اللم .
- (٧٧) الفنيق : الفحل المكرم ، والأذواد : جماعة الابل .
- (٧٨) اعيجاز مصغرا عجاج ، والتبيع : التابع ، والهوادي جمع الهادي وهو العتق .
- (٧٩) الحيا : المطر ، والبراد : البارد .
- (٨٠) الجدود : الحظوظ المكسوبة ، أي أنه بنى مجده بيديه ، عصامي .
- (٨١) التناث : التناجي .
- (٨٢) متعرس : الذي ينزل بالليل (من هوامش د. مبارك والديوان) .
- (٨٣) الجنينة : مقبرة كانت في بغداد .
- (٨٤) الأوشال جمع وَّشَل بالتحريك : وهو الماء القليل يتحلَّب من صخرة أو جبل .
- (٨٥) القضب هنا : السيف (شرح مبارك) .
- (٨٦) محمد جميل شلش : المصدر الفاتت ذكره .
- (٨٧) رخص : غسل وطهر . العالج : العجمي الكافر (من بيت الشعر نفسه) .
- (٨٨) مضبة : موجعة .
- (٨٩) الزغف : الدرغ اللينة الواسعة المحكمة ، والميعة من ماع الفرس إذا جرى .
- (٩٠) علي بن أبي طالب : (نهج البلاغة) .
- (٩١) الأكلة : الغيبة ، والشعواء الغارة المنفرقة .
- (٩٢) أراقم : جمع أرقم وهو أخبث الحيات وأطلبها للناس .
- (٩٣) القرن : الكفوء في الشجاعة .
- (٩٤) المرتق : المكدر .
- (٩٥) الوأي : الوعد .
- (٩٦) تماثلت : يقال تماثل العليل من علته ، أقبل وقارب البرء .
- (٩٧) العضب : السيف القاطع .
- (٩٨) الروع : الفرع ، وقد يأتي بمعنى الحرب .
- (٩٩) جذيمة : هو الأبرش ملك الحيرة ونديماه مالك وعقيل ابنا فالج (الديوان : الهوامش) .
- (١٠٠) العاب : لغة في العيب .
- (١٠١) صفرت : خلت ، الوطاب : الأوعية .
- (١٠٢) د. زكي مبارك : المصدر السابق .

- (١٠٣) المصدر نفسه .
- (١٠٤) أنهر الجرح : وسَّعه . وأنضاه : أهزله .
- (١٠٥) النقص بالكسر : المهزول من السير .
- (١٠٦) ضحا : برز للشمس ، والمفرق بفتح الراء وكسرهما وسط الرأس وهو الذي يفرق منه الشعر .
- (١٠٧) القوارص : الكلمات الجافية .
- (١٠٨) المولى : القريب . ورى القلب : كواه . والميسم : ما يكوى به .
- (١٠٩) يشذب : ليقطع . والنحض : اللحم .
- (١١٠) القبال : من النعل زمام بين الاصبع الوسطى والتي تليها .
- (١١١) المخيلات : جمع مخيلة وهي من أخيلت السياء إذا تهيأت للمطر .
- (١١٢) الشجيجان : مثنى شجيج وهو المجروح .
- (١١٣) يرم : يسكت .
- (١١٤) د . زكي مبارك : المصدر السابق .
- (١١٥) تلخيص محمد جميل شلش ، (الحماسة في شعر الرضي) - هامش الحلقة الثامنة (الماضية) .
- (١١٦) شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي : «ديوان الصباية على هامش تزيين الأسواق» .
- (١١٧) الشريف الرضي : «الديوان - ج ١» .
- (١١٨) د . عاطف جودة نصر : «الرمز الشعري عند المتصوفة» .
- (١١٩) د . عاطف جودة نصر : الرمز الشعري عند المتصوفة
- (١٢٠) المصدر نفسه
- (١٢١) بول تيليش : «الحب والقوة والعدالة» سلسلة النصوص الفلسفية . وبول تيليش فيلسوف ولاهوتي الماني المولد امريكي المواطنة (١٨٨٦ - ١٩٦٥) ترك المانيا النازية إلى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٣ عمل استاذاً للفلسفة واللاهوت وفلسفة الدين بهارفارد وشيكاغو (دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة) .
- (١٢٢) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (الرسالة القشيرية) .
- (١٢٣) د . عاطف جودة نصر المصدر السابق .
- (١٢٤) نسبة إلى أليير كامو الكاتب الفرنسي المعروف .
- (١٢٥) د . زكي مبارك : المصدر المذكور .
- (١٢٦) استشهاد بالآي الكريم : ﴿وما أبرئ نفسي ، إنَّ النفس لأمرأة بالسوء إلاَّ ما رجَمَ رَبِّي﴾ يوسف - ٥٢ .
- (١٢٧) أطلانطس : مدينة السعادة التي غمرتها مياه المحيطات ، وهي خيالية .
- (١٢٨) صَوَّح : التصوح : تآثر الشعر ، والفينان وصف حسن للشعر الطويل يقال : شعر فينان : له أفنان . (وغصن فينان كثير الأغصان) . ويُحْتَلَى من اختلاه بمعنى جَزَّه أو نزعَه .
- (١٢٩) اليَقِّق شديد البياض ، والمنصل : السيف .
- (١٣٠) موثلاً : الموثل المرجع (عن الديوان) .
- (١٣١) الاقتباس من شعر الشريف الرضي إذ قال :

ولم يلبثن غربان الليالي
نعيقاً أن أطرن غراب راسي

(١٣٢) أسجحي: أحسن.

(١٣٣) الصادرة: أي المخطئة من السهام.

(١٣٤) المرأة بعامه، أي غالباً وليس كلاً.



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

رابط بديل
lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

